

سلسلة مؤلفات
نوال السعداوي

الزرقاء

نوال السعداوي

دار المحررين
للنشر والتوزيع

الزرقاء

تأليف
نوال السعداوي

الزرقاء
نوال السعداوي
2020
60
24×17
978-977-6678-60-6

عنوان الكتاب
اسم المؤلف
سنة النشر
عدد الصفحات
مقاس الكتاب
الترقيم الدولي



جميع الحقوق محفوظة للناشر دار المحرر الأدبي
للنشر والتوزيع والترجمة المشهرة برقم 24821 بتاريخ
1/10/2015 إن دار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع
والترجمة غير مسئولة عن آراء المؤلف و أفكاره ؛
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه و أفكاره

البريد الإلكتروني

tahreradbe@gmail.com

المحتويات

٧

١٣

١٥

١٩

٤٣

ثمن الكتابة

إهداء

الشخصيات

الفصل الأول

الفصل الثاني

ثمن الكتابة

مقدمة قصيرة

لا أجد كتابة المقدمات، يمكن أن أكتب قصةً من ألف صفحة، ولا أستطيع كتابة مقدمةٍ من نصف صفحة، أما رفيقة عمري فهي شخصية عصرية على الفهم، تكتب في النوم كما تكتب وهي صاحبة، لا تهتم بدورة الأرض حول نفسها، أو دورتها حول الشمس. تضحك وتقول: نحن أحرار، ندور كما نشاء؛ حول أنفسنا، أو حول غيرنا، أو لا ندور. لكن عقلي يدور، رغم مشيئتي، في النوم كما في اليقظة.

أصحو من النوم كل صباح على رنين الجرس، صوتها يأتيني من حيث تكون، في أي مكانٍ فوق كوكب الأرض، هي تعشق السفر منذ كانت طفلة، لا تعود إلى الوطن حتى ترحل، مهما ابتعدت وطال الغياب، أراها أمام باب بيتي، بحقيبتها العتيقة بلون النبيذ الأحمر، حرقتها الشمس وأغرقتها الأمطار في الجنوب والشمال، أصبحت أقل حُمة مما كانت، وإن ظلت حمراء اللون، متينة العجلات قوية العضلات، أقل قوةً بمرور الزمن، تجرُّها من خلفها وهي تجتاز المطارات والمحطات، تنزلق وراءها بخفة فوق الشوارع المرصوفة الناعمة، وتغوص بثقلها في الأزقة حيث الحفر والمطبات، مليئةً بالكتب وملابسها وأوراقها، مقبضها متين لا ينخلع، يحمل اسمها، داخل قطعة من البلاستيك الأبيض بحجم كف اليد.

اسمها الثلاثي كان مسجلاً في أقسام وزارة الداخلية والشئون الاجتماعية ومصحة السجون وإدارات الرقابة على النشر والكتابة والمصنفات الفنية.

يحملق ضابط الشرطة بمطار القاهرة في اسمها الثلاثي، يتأمل صورتها في جواز سفرها، يبتسم في وجهها: حمد الله ع السلامة يا أستاذة. يدق بالمطرقة على جواز سفرها فتدخل. وإن وصلت القائمة السوداء إليه قبل عودتها، يعتذر لها برقة ورثها عن أمه، يناولها كرسياً لتستريح وكوب ماء: آسف يا أستاذة، عندي أوامر لازم أنفذها. وإن كان عضواً بحزب الجهاد أو داعش أو حزب الحكومة، يكشر عن أنيابه مبرطماً بصوت غليظ، ويحجزها مع حقيبتها في غرفة الحجر الصحي؛ حيث تلتقي بأنواع مختلفة من البشر، بعضهم مرضى بالجذام وأنفلونزا الخنازير، وبعضهم مصاب بالجنون أو الكفر، منهم الكوافير سوسو، كان شهيراً في الحي الراقي بجاردن سيتي، اكتسب ثقافة نادرة من الحلاقة للنساء والرجال، أصابعه ماهرة تدرک أفكاراً مدهشة في الرعوس التي تغوص فيها، يأتي سكان الحي الراقي إلى محله الأنيق بشارع التهنيدات، نساء ورجال من المثقفين أو الطبقة العليا، يؤمنون أن الإنسان تطوّر عبر ملايين السنين من فصيلة الثدييات على رأسها الشمبانزي الأم الكبرى، وأن الأرض كروية تدور حول الشمس وليس العكس، وأن الكون نشأ بالصدفة البحتة حين حدث الانفجار الكبير وانتشرت في الفضاء ذرات، تناثرت وتجمّع بعضها لتكوين أول مادة أو أول كتلة مادية في الوجود.

وكان من زبائن الكوافير سوسو، أيضاً، البوابون والطباخون في قصور الباشوات القدامى والجدد في جاردن سيتي، منهم الحاج منصور الشهير باسم طبّاخ الباشا؛ رجل سمين مملوء بالسمن البلدي والطعام الفاخر الذي يبتلعه سراً.

وبينما هو يترك رأسه بين يدي الكوافير سوسو، يحكي الحكايات القديمة عن الممالك والأتراك، كيف عاشوا في الأناضول، ولا بد أن يذكر الأسلاف من أجداده وعلى رأسهم جده الكبير، الذي حكى له وهو صغير أن الله خلق للثور قرنين؛ لأنه يحمل الأرض فوق قرن، وإن تعب من ثقلها حرك رأسه ونقلها إلى قرنه الثاني.

ويضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.

– لا، معقول يا سوسو، امال الزلازل والبراكين والبرق والرعد ببيجوا منين؟

ثمن الكتابة

- منين يا حاج منصور؟
- لما الثور يحرك الأرض على راسه من قرن لقرن يحدث البرق والرعد، والزلازل تهز الأرض.
- يضحك الكوافير سوسو: مش معقول يا حاج منصور.
- لا، معقول يا سوسو.
- الكلام ده كان زمان قبل جاليليو.
- جاليليو خواجه يهودي نصراني ما يعرفش ربنا.
- لازم تعرف حاجة عن جاليليو يا حاج، اسمعني.
- سامعك يا خويا.
- جاليليو أمه ولدته في إيطاليا بعد العدرا مريم ما ولدت المسيح بألف وخمسميت سنة أو أكثر، وكانت إيطاليا وأوروبا كلها محكومة بالكنيسة وعاشة في الجهل والظلام، درس جاليليو الطب والهندسة والفلك، واكتشف أخطاء العلماء اللي قبله في اليونان، منهم أرسطو.
- أرسطو كان مؤمن بربنا يا سوسو؟
- أرسطو كان مؤمن بالكنيسة يا حاج منصور وبينشر أفكارها في كتبه، واعتبرته الكنيسة الفيلسوف الأعظم وأغدقت عليه الأموال والمناصب، لكن جاليليو عمل منظار جديد واكتشف خطأ أرسطو، وإن الأرض بتدور حول نفسها وحول الشمس، غضبت منه الكنيسة واتهمته بالكفر والإلحاد والخيانة؛ لأنه بيعارض الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ونظرية أرسطو عن إن الأرض ثابتة لا تتزعزع ولا تتحرك أبد الدهر، قدموا جاليليو للمحاكمة وأدانوه، ومات فقير مسكين معزول في بيته.
- مين قال لك الكلام ده؟
- الباشا الي باحلق له شنبه ودقنه.
- الباشا بنفسه يا سوسو؟
- أيوة يا حاج منصور.
- لازم كلامه صح مية المية، لكن أنا مش حاسس إن الأرض بتدور يا سوسو!
- لأنها بتدور بسرعة كبيرة يا حاج، وانت جزء منها وبتدور معاها.

- مش معقول يا سوسو.
- مثلاً وانت راكب جوة القطر يا حاج، لا يمكن تحس إنه بيجري بسرعة.
- لكن القطر غير الأرض يا سوسو، ولا إيه؟
- إيه يا حاج!
وينفجر الكوافير والحاج منصور في الضحك.
تخرج هي، رفيقة العمر، تجرُّ حقيبتها الحمراء ذات العجلات، من غرفة الحجر الصحي بالمطار بعد عدة ساعات، أو عدة أيام حسب مزاج الحكومة والمخابرات، ثوبها مكرمش وشعرها منكوش، نامت على الكرسي وإلى جوارها الحقيبة، تلمسها بيدها إن أفاقت في الظلمة فجأة، تخشى أن يسرقها أحد وهي غارقة في النوم، أو غائبة عن الوعي من شدة التعب، وفي أحد الصباحات، دون سابق إنذار، يأتي الضابط مبتسمًا، ويقول: مبروك يا أستاذة، صدر العفو الرئاسي عن بعض المعتقلين والمعتقلات بمناسبة العيد.
- أي عيد؟
الأضحى الكبير، أو العبور العظيم، أو شم النسيم في بداية الربيع، يصحو الناس في الصباح الباكر ليشموا البصل والرنجة والفسیخ، يتمشون على شاطئ النيل، الأغنياء منهم يشمون النسيم في المنتجعات الجديدة على شاطئ البحر الأبيض بالساحل الشمالي، أو في الغردقة وسواحل البحر الأحمر.
لكن يظل الفسیخ اللذيذ من نبروه، مع أصناف الطعام الفاخر ومعه البصل الأخضر والملانة والرنجة من ضرورات العيد، لإعادة الذاكرة الطفولية والخصوصية الثقافية وتاريخ الأجداد.
كنت أحب الفسیخ وهي لا تُطيق رائحته، لا تزورني أبدًا في المواسم، لا تحتفل بالأعياد، وعيد ميلادها لا تذكره، إن نكَّرتها به تمطُّ شفتها السفلى وتنهك في الكتابة.
- كم عمرك؟
- مش فاكرة.
- مش معقولة انتي.
- انتي الي مش معقولة.
- ازاي؟

ثمن الكتابة

- إيه يهكم من عمري؟
- عاوزة أعرف انتي عشتي كام سنة.
- ليه؟
- مش عارفة.

(انتهت المقدمة)^١

نوال السعداوي
القاهرة
٢٢ مارس ٢٠١٧

^١ تتصدر هذه المقدمة كافة أعمال الدكتورة نوال السعداوي.

إهداء

قطعة نابضة من نفسي أمنحها إلى أستاذي الكبير الدكتور فهيم فهمي الذي استطاع أن يُعلِّمني الطب وعجز عن أن يعلمني الإنسانية فاستطعت أن أمنحه كلَّ شيء عندي إلا نفسي.

د. نادرة

الشخصيات

- د. نادرة: شابة في الخامسة والثلاثين، قوية الملامح فيها جمال طبيعي وجاذبية.
- شُهدي: تمورجي في الأربعين، قوي الملامح، في وجهه إنسانية وطيبة.
- د. شرف الدين: شاب في الثلاثين، رقيق الملامح.
- أ.د. فهيم فهمي: رجل في الخامسة والأربعين، له ملامح قوية جذابة.
- د. توفيق: شابٌ في الثلاثين، عادي.
- تفيدة: امرأة في الأربعين، ترتدي باروكة وملامحها صناعية أو مصنوعة.
- السجّان: رجل في الأربعين، ضخم الجثة، قوي الجسم.
- الوالي: رجل في الخمسين، له هيئة الحُكَّام.
- مارة في الشارع.
- عمال.
- عاملات.
- أطفال.

الفصل الأول: ٩ مشاهد

- (١) د. شرف الدين، التمورجي شُهدي، عامل يحتضر (في حُجرة الطبيب بالمصنع بها سرير).
- (٢) د. توفيق، د. شرف الدين (في حجرة الطبيب بالمعمل، بها ميكروسكوب).
- (٣) د. فهيم فهيمي، الوالي (في مكتب الوالي الفاخر).
- (٤) د. فهيم، د. شرف الدين (في حجرة بالمعمل، بها ميكروسكوب).
- (٥) د. توفيق، د. شرف الدين (في نفس الحجرة السابقة).
- (٦) د. شرف الدين، التمورجي شُهدي، عامل يحتضر (في حجرة الطبيب بالمصنع بها سرير).
- (٧) التمورجي شُهدي يسير حاملاً على كتفيه عاملاً، المسرح خالٍ ومظلم (موسيقى حزينة).
- (٨) امرأة ترتدي السَّواد تجري مُهرولة وتجتاز المسرح ومن خلفها أطفال يَجْرُونَ خلفها.
- (٩) أصوات تُسَمَع فقط (حسب النص) المسرح خالٍ ومُظلم.

المسرح مُظلم

الصالة تُضاء. استراحة قبل الفصل الثاني.
تستمرُّ الموسيقى الحزينة خلال الاستراحة والمسرح يظلُّ مُظلمًا.

الفصل الثاني: ٨ مشاهد

- (١) طفل صغير يجلس وحيدًا على خشبة المسرح. المسرح مُظلم وخال. المسرح يمتلئ بالمارّة في كلِّ اتجاه. المسرح يُضيء.
- (٢) د. فهيم، زوجته تفيدة (في حجرة نومها الفاخرة).
- (٣) التمورجي شُهدي، د. شرف الدين يحتضر، د. توفيق (في حجرة الطبيب بالمصنع بها سرير).
- (٤) التمورجي شُهدي، السجّان (في زنزانة).
- (٥) شُهدي، د. نادرة (في نفس الزنزانة السابقة).
- (٦) د. نادرة، د. فهيم (في مكتب د. فهيم الفاخر).
- (٧) د. فهيم، د. توفيق (في المكتب السابق).
- (٨) نادرة، شُهدي، شرف الدين، فهيم، توفيق، تفيدة، السجّان، الوالي يدخلون المسرح بهذا الترتيب ويخرجون منه بهذا الترتيب؛ نادرة في المُقدّمة والوالي في المؤخّرة.

الملابس

- د. شرف الدين، ود. توفيق، ود. نادرة يَظهرون دائماً بالباطو الأبيض.
د. فهيم فهيم يرتدي حلّة أنيقة بغير بالطو أبيض.
الملابس الأخرى حسب الشخصية.

الديكور

بسيط للغاية؛ سرير، ميكروسكوب، كراس، فيما عدا الأثاث الفاخر الآخر.

الفصل الأول

٧ مشاهد

المشهد الأول

د. شرف الدين طبيب المصنع جالس إلى مكتبه. يدخل التمورجي شُهدي حاملاً أحد العُمَّال يُساعده اثنان من العُمَّال. يَضَعون المريض على السرير. د. شرف الدين يُسرع إلى إسعافه. شُهدي يساعده. المريض في حالة سيئة يتنَفَّس بصعوبة. شفّته زرقاوان.)

(د. شرف الدين يَجُسُّ النبض.)

د. شرف الدين: هات لي حُقنة كورامين بسرعة.

شُهدي: حاضر يا دكتور.

(يجري شُهدي، يُحضر الحقنة، وشرف الدين يعطيها للمريض في ذراعه.)

(العاملان لا يزالان يقفان، ينظُران إلى زميلهما المريض في حُزن.)

شُهدي: اتفضّلوا انتم يا رجّاله شوفوا شغلكم عشان احنا نشوف شغلنا.

أحد العمال: فيه أمل يا عمُّ شهدي؟
شُهْدِي: طول ما هو بيتنفس يبقى فيه أمل، مفيش أمل ازاى؟ فيه أمل. فيه.

(يخرج العاملان.)

د. شرف الدين يجسُّ النبض.)

د. شرف الدين: هات كمان حُقنة يا شهدي.

(شُهْدِي يجري ويُحضر الحُقنة الثانية.)

(المريض يموت قبل أن يأخذ الحُقنة.)

د. شرف الدين يقف أمامه حزينًا مُمسِكًا بالحُقنة في يده.)

(شُهْدِي يُغطِّي الميت بالملاءة.)

(الاثنتان يقفان في صمتٍ وحزن.)

شُهْدِي: البقية في حياتك يا دكتور، الموت مكتوب علينا، ما حدش بيموت ناقص عُمر.
د. شرف الدين: أيوه.

شُهْدِي: بس أنا بفكر في ولاده ومراته، كان هو اللي بيجري عليهم ويوكلهم، مالهوش حد غيره، حيعملوا إيه بعد ما راح؟

د. شرف الدين: لازم نجمعلهم حاجة يا شهدي لغاية ما يصرفوا المعاش.

شُهْدِي: معاشه هيصرف على عيّل واحد من خمسة؛ ربنا معاهم، أنا حلملهم من العُمّال قرشين لحدّ ما ربنا يفرجها.

(يسكت لحظة.)

أنا لسه لأمم منهم الأسبوع اللي فات عشان ولاد المرحوم متولي وقبل كده لبيت منهم
عشان ...

(يسكت لحظة.)

أهو كله بثوابه، مفيش حاجة بتضيع، القرش اللي تدفعه النهارده بيتحوّش لولادنا بكرة، حد عارف بكرة حيحصل إيه.

(يعود إلى حيث يجلس د. شرف الدين ساهمًا حزينًا.)

شُهدي: عاوز أقولك حاجة يا دكتور.

د. شرف الدين (بصوت حزين): إيه يا شُهدي؟

شُهدي: أنا ملاحظ ...

د. شرف الدين: ملاحظ إيه يا شُهدي؟

شُهدي: ده رابع واحد بييموت الشهر ده يا دكتور.

د. شرف الدين (بصوت قلق): أيوه الرابع يا شُهدي.

شُهدي: قلبه كان محمد وقبله كان علي، ومتولي.

د. شرف الدين: أيوه يا شُهدي.

شُهدي: أنا ما بقولش حاجة يا دكتور، الأعمار بيد الله، لكن أنا لاحظت إن كلهم ...

د. شرف الدين (ينهض): كلهم إيه يا شُهدي؟

شُهدي: مش عارف يا دكتور. هو حضرتك ما لاحظتتش إنهم الأربعة تقريبًا ...

د. شرف الدين (قلقًا): تقريبًا إيه يا شُهدي؟

شُهدي: بقول يعني تقريبًا ماتوا موتة واحدة.

(شُهدي يبدو عليه التوتر والقلق.)

د. شرف الدين: انت كمان لاحظت يا شُهدي؟ أنا كنت باكدّب نفسي وأقول إنها جايز

تكون صدفة، لكن انت كمان لاحظت؟

شُهدي: أيوه لاحظت يا دكتور.

د. شرف الدين: قولي لاحظت إيه؟

شُهدي: شفايفهم يا دكتور ازرقت.

د. شرف الدين: هيه، وإيه كمان؟

(الدكتور يكشف الملاءة عن وجه العامل الميت الراقد على السرير. ينظر في وجهه

لحظة ثم يعطيه.)

شُهْدِي: لَمَّا «محمد» شفایفه ازرقّت قُلْتُ لازم من رطوبة المصنع والدُّنْيا سِتًا، وهو طول عمره خفيف وما يستحملش حاجة. ولَمَّا «علي» شفایفه ازرقّت قُلْتُ يمكن برضه السَّتا ورطوبة البلاط اللي بيوقف عليه سبع ساعات. ولما «متولي» راحر قُلْتُ إيه الحكاية؟ والنهارده، الرابع في شهر واحد؛ الفار لعب في عِبِّي.

(د. شرف الدين يمشي في قلقٍ وتوتُّر، يُفكِّر.)

د. شرف الدين: أنا برضه شكيت.

شُهْدِي: شكيت في إيه يا دكتور؟

(شرف الدين صامت لا يرد.)

شُهْدِي: طمَّني يا دكتور عشان أطمئن العَمَّال أحسن ...

د. شرف الدين: أحسن إيه، حد منهم لاحظ كمان؟

شُهْدِي: حضرتك عارف يا دكتور العَمَّال مشغولين على الآخر وكل واحد منهم ملهي في حاله وعياله، كل واحد فيهم مش لاجق يأخذ نفسه عشان يجيب لقمة العيش لولاده، لو طبَّ اللي واقف جنبه ما حدش حيلاجظ حاجة. أنا يا دكتور اللي لاحظت الزرقان الغريب ده في الشفايف.

د. شرف الدين: ولاحظت إيه كمان يا شُهْدِي؟

شُهْدِي: مفيش غير زرقان الشفايف. هو إيه ده يا دكتور؟ مرض ده ولا إيه؟

د. شرف الدين: ما لاحظت الكحة تاني يوم؟

شُهْدِي: لا يا دكتور؛ أصلهم كلهم بيكُحُوا. فيه حد ما بيكُحش كُحَّة طبيعية كده أو كُحَّة سجاير.

د. شرف الدين: لا، بس دي كُحَّة من نوع تاني؛ زي ما يكون حاجة مشروخة في الصدر، وتالت يوم نفَّسهم ينكرش.

شُهْدِي: دي حاجة غريبة يا دكتور، تفكّر هُمُّ الأربعة ماتوا بعيا واحد؟

د. شرف الدين: ده اللي مخوفني يا شُهْدِي؛ وعشان كده لازم أخذ عينة من الرئة المرَّة دي وأبعثها المعمل عشان تتفحص. هات لي مشرط يا شُهْدِي.

شُهَدِي: حاضر يا دكتور.

(يُنَاوِلُه المشرط. د. شرف الدين يَكْشِف صدر المِيت وَيَأْخُذ العِيْنَةَ.)

(ظلام.)

المشهد الثاني

(د. توفيق في مكتبه، جالس وأمامه الميكروسكوب، ينظر فيه. د. شرف الدين واقف إلى جواره.)

د. توفيق: تعالی یا شرف الدين بُص كده!

(د. شرف الدين ينظُر في الميكروسكوب.)

د. توفيق: شايف إيه؟

(شرف الدين يرفَع وجهه إلى توفيق في صمتٍ وقلَق.)

د. توفيق: إيه؟ شُفت إيه؟ ساكتٍ ليه؟

د. شرف الدين: أنا مش ساكت.

د. توفيق: ما انت ساكت أهه!

د. شرف الدين: بس عاوز أتأكد تاني.

(د. شرف الدين ينظر مرَّةً أُخرى في الميكروسكوب.)

د. توفيق: باينة زي الشمس.

د. شرف الدين: الزر...

د. توفيق: الزَّرَقا.

- د. شرف الدين: الزَّرَقَا؟
د. توفيق: أيوه الزَّرَقَا.
د. شرف الدين: المسألة تبقى خطيرة يا توفيق.
د. توفيق: طبعا خطيرة، أنا مش عارف الميكروب ده جه للمصنع منين؟
د. شرف الدين: يمكن من دفعة الأرناب الأخيرة التي جت من استراليا.
د. توفيق: لازم هي دُفَعَة الأرناب الأخيرة. وحتعمل إيه يا شرف الدين؟
د. شرف الدين: دي مشكلة كبيرة؛ الزرقا مرض مُعدي، الأرناب تنقله للإنسان في ثلاث ايام يكون انتهى.
د. توفيق: ومالوش علاج لغاية النهارده.
د. شرف الدين: مفيش علاج، لكن مُمكن نحمي العُمال من العدوى.
د. توفيق: أزاى؟
د. شرف الدين: طبعا في المصنع الحالي مش مُمكن؛ المصنع قديم، أصله ماتبناش عشان يبقى مصنع، المصنع ده لازم ينهد، رطوبة وضملة وغير صحي بالمره، لازم ينهد ويتبني مصنع جديد يفصل بين الأرناب والعُمال، انت عارف الزَّرَقَا بتنتقل عن طريق الهواء، ولو فصلنا الأرناب عن العمال حنمنع العدوى منهم. المصانع في استراليا كلها بالشكل ده. إيه رأيك يا توفيق؟
د. توفيق: والله أنا مافهمش في الحاجات دي، إحنا لازم نروح نقول للدكتور فهيم؛ هو المسئول وعليه هو اللي يفكر ويشوف الحل.
د. شرف الدين: يالا بينا بسرعة.
(ظلام.)

المشهد الثالث

(الوالي جالس إلى مكتبه الفاخر. الأستاذ الدكتور فهيم جالس أمامه في تأدب واحترام.)

الوالي (قلق): والأرانب يا دكتور فهيم، مفيش أي خطر على الأرانب؟
د. فهيم: لا يا فندم زي ما أكدت لسيادتك الأرانب تحمل الميكروب بس ولا تعيش أبدًا.

الوالي: برضه مش قادر أفهم إزاي الميكروب يعيش جُوّه رثة الأرانب وما يعملش حاجة ولما ينتقل للبني آدم يجبله الزرقا، أو البلا الأزرق ده؟
د. فهيم: دي حاجات معروفة في الطب يا فندم، وفيه ميكروبات كتير بالشكل ده؛ تعيش جُوّه الحيوان ولما تنتقل للإنسان تسبب له المرض.
الوالي: الأرانب همّ ثروة البلد، راسمالنا الوحيد، مش عاوز يكون عندي أي شك إنها ممكن تكون مُعرّضة لأي خطر.

د. فهيم: من ناحية الأرانب يا فندم مفيش أي خطر، الخطر على العمّال.

الوالي: احنا عندنا كام أرنب السنّة دي؟

د. فهيم: ١٣ مليون يا فندم.

الوالي: أفكر انهم بيزيدوا بمعدّل كويس.

د. فهيم: أيوه يا فندم.

الوالي: يبدو إن حبوب زيادة النسل إلي انتم بتدّوها لها من السنّة الي فاتت جابت نتيجة.

د. فهيم: أيوه يا فندم، الحبوب زودت نسل الأرانب إلى حوالي ٥٠٪.

الوالي: كويس خالص، والنسل الجديد قوي وصحته كويسة؟

د. فهيم: أيوه يا فندم.

الوالي: والدفعة الجديدة من الأرانب الأسترالي كلها كويسة؟

د. فهيم: كلها كويسة.

الوالي: وهي الي جابت الزرقا؟

د. فهيم: أيوه يا فندم.

الوالي: انتم مش بتاخدو منها عيّنات قبل ما تحطّوها مع الأرانب الثانية؟

د. فهيم: أخذت عيّنات يا فندم، وكانت كلها سلبية. سعادتك عارف إن العينة وبالذات

في الزرقا جايز تكون سلبية لكن الميكروب يكون كامن جُوّه الرثة.

الوالي: شيء غريب فعلاً! ومفيش أي أرنب ظهرت عليه أي أعراض؟
د. فهيم: لا يا فندم مش مُمكن تظهر عليه أي أعراض لأن الأرنب مش بتعيبى بالزرقا. من ناحية الأرنب سعادتك تكون مطمئن وعلى مسئوليتي أنا، الخوف على العمال.

الوالي: أزاى؟

د. فهيم: الزرقا في ٣ أيام بتقضي على العامل.

الوالي (قلق): يعني مُمكن تخلص على العمال بتوعنا؟

د. فهيم: لا يا فندم، الزرقا مش بتنتشر بسرعة، انتشارها بطيء.

الوالي: بطيء أزاى؟

د. فهيم: يعني بتصيب عدد قليل من العمال؛ العامل القوي اللي صحته كويسة مُمكن يقاومها، لكن العامل اللي جسمه ضعيف بتقضي عليه، وكمان الميكروب ميتحملش الحرارة والشمس؛ وعشان كده تقريباً بيموت في الصيف.

الوالي: الله في خلقه شئون.

د. فهيم: الشهر اللي فات مات أربعة من العمال.

الوالي: اشمعنى يعني أربعة؟

د. فهيم: كان مُمكن يبقى أقل من كده أو أكثر شوية، لكن على العموم تقريباً نسبة انتشار الزرقا زي ما قُلت لسعادتك انتشارها بطيء لكن بتستمر سنوات كثيرة.

الوالي: سنوات طويلة؟

د. فهيم: أيوه يا فندم.

الوالي: وكل شهر تموت أربع عمال؟

د. فهيم: تقريباً يا فندم.

الوالي: أربعة في ١٢ شهر يعني حنققد حوالي خمسين عامل في السنة.

د. فهيم: تقريباً يا فندم.

الوالي: وقُلت لي إن مفيش علاج لها لغاية النهارده؟

د. فهيم: أيوه.

الوالي: إذن مفيش في إيدنا حاجة نعملها يا د. فهيم.

د. فهيم: مفيش، لكن ... مُمكن نمنع المرض.

الوالي: مش فاهم.

د. فهيم: المصنع الموجود مصنع قديم زي ما سعادتك عارف، ماتبناش في الأصل عشان يبقى مصنع.

الوالي: لكن بقى مصنع وشغَّال كويس والإنتاج بيزيد. مش كده ولا إيه؟

د. فهيم: أيوه بيزيد يا فندم.

الوالي: إحنا زدنا أد إيه السنَّة دي؟

د. فهيم: حوالي ٥٠٪ يا فندم.

الوالي: يعني زي نسبة زيادة الأرناب.

د. فهيم: أيوه يا فندم.

الوالي: كويس خالص.

(الوالي يصمت ويفكر لحظة.)

الوالي: تعرف يا دكتور فهيم؟ أنا لسه مش مُتصور ازَّاي الميكروب يعيش جُوه رئة

الأرناب، وما يسبَّبش لها أي مرض.

د. فهيم: ربنا خلقه كده يا فندم.

الوالي: ربنا كبير، عالم بحالنا، لو جرى أي حاجة للأرناب البلد تضيع يا دكتور فهيم.

فاهم تضيع يعني إيه؟

د. فهيم: فاهم يا فندم، سعادتك تكون مطمئن خالص على الأرناب، أنا احب افكر

سيادتك إن احنا فقدنا أربعة من العمال.

الوالي: اشمعنى الأربعة دول اللي جالهم الزرقا؟

د. فهيم: جايز جسمهم أضعف، جايز مناعتهم أقل، سنهم أكبر ...

الوالي: يعني الميكروب بيختار الأضعف؟

د. فهيم: أيوه يا فندم.

الوالي: ميكروب عنده عقل! والميكروب ده يستمر كده؟

د. فهيم: هو بيزيد في الشَّتا عشان البرد والعطس؛ الميكروب زي ما قلت لسعادتك

بينتقل عن طريق الهواء.

(الوالي ينظرُ إلى الهواء في قلقٍ وفزع.)

الوالي: الهوا؟ يعني مُمكن يوصل لغاية عندنا؟

د. فهيم: لا يا فندم مش مُمكن؛ الميكروب بي موت بسرعة في الجو، وخصوصًا إذا كان فيه شمس وهوا، الميكروب لا يمكن يقدر يخرج بره المصنع.

الوالي: الكلام ده أكيد مية المية؟

د. فهيم: أيوه يا فندم، دي حاجة معروفة في الطب.

الوالي: يعني مفيش خطر علينا، أي احتمال لأي خطر؟

د. فهيم: مفيش أي خطر يا فندم، الخطر بس على اللي جُوه المصنع، أو اللي يدخل المصنع.

الوالي: كان لازم تتبَّهني للمسألة دي يا د. فهيم؛ أنا كنت نازل مرور للمصنع بكرة.

د. فهيم: ما كُنت حقول لسعادتك.

الوالي: وانت كمان يا د. فهيم بلاش تروح المصنع، إديّ تعليماتك من مكتبك؛ إنت

راجل كفاء ومُخلص للبلاد ولازم نحافظ عليك.

د. فهيم: أشكرك يا فندم.

الوالي: انت قُلت حنخسر كم عامل تقريبًا في السنة؟

د. فهيم: حوالي ٥٠ عامل.

الوالي: عدد مش كبير بالنسبة لعدد العُمال عندنا، ومُمكن تعويضهم من الدُفعات

الجديدة اللي بتأخذوها كل سنة، بيتقدّم لكم طلبات كثيرة مش كده؟

د. فهيم: أيوه يا فندم.

الوالي: الأيدي العاملة عندنا كثيرة قوي، وكل سنة بتزيد عن السّنة اللي قبلها،

وإمكانياتنا محدودة ومُصنعنا ما بيقدرش يشغل كل دول، بنواجه مشكلة بطالة، ومشكلة

عيال بيتولدوا وبيزيدوا يوم ورا يوم، لا لهم شغل ولا لهم أكل، أجيب منين يا د. فهيم؟ أنا

قلت لك تشفلي حل في المشكلة دي.

د. فهيم: أنا كلفت الدكتور المُختص اللي اكتشف الحبوب اللي زودت نسل الأرناب،

إنه يعمل بحوث ويحاول يشوف دوا يقلل نسل البني آدمين.

الوالي: وعمل إيه؟

د. فهيم: هو اكتشف دوا تشربه الست من دول معلقة ثلاث مرات في اليوم الواحد، بعد أسبوع واحد نسلها يقل ٥٠٪.

الوالي: يعني الست من دول اللي كانت بتولد عشر عيال تولد خمسة؟

د. فهيم: أيوه، النسبة طلعت كده من التجارب بتاعتنا.

الوالي: برضه مش كفاية يا د. فهيم، أنا عاوز الست الي كانت بتولد خمسة تولد واحد بس. كفاية عيّل واحد؛ احنا عندنا نسبة بطالة كبيرة. انت بيتقدم لك كام طلب كل سنة

عشان يشتغلوا في المصنع؟

د. فهيم: حوالي ألفين طلب يا فندم.

الوالي: وبتقدر تشغل كام؟

د. فهيم: حوالي ٢٠٠ أو ٢٥٠، بالكثير ٣٠٠ حسب حاجة المصنع.

الوالي: يعني بتشغل العُشر.

د. فهيم: تقريبًا.

الوالي: يبقى عيّل واحد برضه كتير يا د. فهيم. احنا عاوزين نخفض عدد الناس للعُشر؛ يعني الست اللي كانت بتولد عشرة تولد واحد بس، واللي بتولد خمسة تولد نص.

د. فهيم: نص؟

الوالي: النسبة لازم تبقى كده عشان نقضي على البطالة.

د. فهيم: أنا حكف الدكتور المُختص يبحث عن دوا تاني أكثر فاعلية.

الوالي: متشكر يا د. فهيم. لازم وراك شُغل.

د. فهيم (ينهض): أيوة يا فندم، بس كنت عايز آخذ رأي سعادتك في موضوع الزُّرقا.

الوالي: رأي في إيه؟

د. فهيم: قصدي حكاية أربعة أو خمسة من العُمال يعيُّوا ويموتوا كل شهر دي

جايز تخيّل العُمال يلاحظوا إن فيه حاجة مش طبيعية.

ثم إن الدكاترة حللوا وعرفوا الميكروب.

الوالي: وإيه فايده ما عرفوا؟ هل عندهم علاج؟

د. فهيم: مفيش علاج للمرض نفسه، لكن الدكاترة بيقولوا إن العلاج الوحيد هو إن

احنا نمنع المرض.

الوالي: إزاي؟

د. فهيم: كان عندهم اقتراح؛ يقولوا إن احنا نهد المصنع القديم ونبني مصنع جديد بتصمم بطريقة حديثة، بحيث إن الأرناب تعيش في غرفة خاصّة معزولة عن العمّال. أستراليا عملت كده.

الوالي: واحنا زي استراليا يا د. فهيم؟! أنا مش عارف الدكاترة بتوعك عايشين معانا ولا في المريخ. تفكيرهم ده يدل على إنهم جهلوا الواقع بتاعنا، جهلوا إمكانياتنا. التفكير العلمي هو التفكير اللي يتمشى مع الواقع، أما الأحلام والأفكار الخيالية دي كلها دليل الجهل والرعونة. أنا حاهد المصنع وابني مصنع جديد بأدّ إيه وعشان إيه؟ حادف كام وأخد كام؟ الهد والبُنا يكلفنا أدّ إيه؟

د. فهيم: حوالي ١٠ مليون جنيه.

الوالي: أدفَع عشرة مليون جنيه منين وعشان إيه؟ عشان أوفّر خمسين أو ستّين عامل في السنة بيحيلي بدلهم كل سنة ألفين؟

د. فهيم: هو فعلاً اقتراح خيالي شويه يا فندم؛ أصلهم شباب.

الوالي: مش خيالي بس، ده اقتراح يدل على عدم الوعي. أنا مش عارف الدكاترة ليه دايماً أفكارهم قاصرة بالشكل ده؟ ده لأنهم معزولين عن المجتمع، مش فاهمين المشاكل اللي بتواجهنا.

د. فهيم: أصلهم محصورين في أبحاثهم الطبية. هم يفهموا في الميكروبات والأمراض والهرمونات ده تخصصهم يا فندم.

الوالي: وهم عرفوا إن فيه زرقا في المصنع؟

د. فهيم: أيوه يا فندم؛ همّ اللي حللوا وعرفوا.

الوالي: تدّي أوامر لهم إن ما حدّش يقول حاجة للعمال؛ مش عاوز العمّال يعرفوا. لو عرفوا حيهربوا من المصنع والبلد كلها تجوع. احنا كلنا عايشين على المصنع. مش كده ولا إيه؟

د. فهيم: أيوه يا فندم.

الوالي: صوف الأرناب بتعنا واخذ سُمعة طيبة في كل حنة، مش عاوز العمّال تعرف حاجة، لو عرفوا حيهربوا والمصنع يقفل، العمّال مش حيفكروا في مصلحة البلد، هم حيفكروا بس أزاي يهربوا من المصنع، مفيش عندهم رُوح التضحية من أجل البلد، كل واحد حيفكر في نفسه وبس. مش كده ولا إيه يا د. فهيم؟ وعشان كده عاوزكم تعملوا لهم توعية

وطنية، والعامل منهم لازم يبقى فوق مصلحته الخاصة، يبقى عنده إحساس بالصالح العالم ومُستعد يموت وهو واقف قُصاد آله في المصنع، عشان مصلحة البلد، بالظبط زي الجندي الي بيَموت على مدفعه وهو بيحارب من أجل الوطن. فاهمني يا د. فهيم؟
د. فهيم: أيوه يا فندم.

الوالي: والدكاترة بتوعك يا د. فهيم لازم يعرفوا إن مفيش حاجة اسمها زرقا في مصنعنا، مصنعنا نضيف زي الفل وشغال عال العال؛ إذا كان فيه ثلاثة أو أربعة من العمال بيعيوا أو بيَموتوا كل شهر فده شيء طبيعي، ما حدش ما بيعياش ومفيش حد ما بيَمُت. في كل بلاد العالم فيه ناس بيعيوا وناس بتموت، ربنا الي بيَموت مش الزرقا، لا يمكن حته ميكروب مفعوص يموت بني آدم واحد من غير إرادة ربنا. مش عارف ليه يا دكتور فهيم أنا بلا حظ إن الناس الي بيدرسوا الطب بيبعدوا شويه عن ربنا! غرور يا د. فهيم، غرور؛ بيتصوِّروا انهم ما دام عرفوا حاجة عن الأمراض أو الميكروبات أو قدروا ينقذوا بعض الأرواح، خلاص عرفوا سر الكون، مع إنني مُتأكد ومؤمن إيمان لا يقبل الشك إن مفيش رُوح واحدة يقدر الدكتور ينقذها إلا إذا ربنا أراد، وإذا ربنا ما أرادش لازم العيَّان يموت غضب عن أي دكتور. مش كده ولا إيه يا د. فهيم؟
د. فهيم: تمام يا فندم.

الوالي: عشان كده أنا عاوزك تعمل شوية توعية دينية للدكاترة بتوعك؛ أنا بصراحة حاسس إنهم بيبعدوا عن الدين شوية شوية.
د. فهيم: لا يا فندم، كلهم مؤمنين وكويسين والحمد لله، لكن برضه زي ما سعادتك أمرت؛ نعمل لهم توعية.

(الوالي ينهض. يقترب مع د. فهيم ناحية الباب.)

الوالي: وزى ما قلت لك، تدِّي أوامرك من مكتبك وما تنزلش المصنع، أنا عارف إنه أحياناً بتجيلك نوبات عاطفية غريبة، أنا شخصياً بسميها تهور، تقوم تتهور وتنزل مرور المصنع. أنا بمنعك بالأمر من نزول المصنع؛ حياتك مش ملكك، دي ملك البلد، ولازم نحافظ عليها، لازم نحافظ على العقول البشرية تمام زي ما أنا مؤمن باستثمار الثروة القومية بتاعتنا. فكرتني! أنا كنت عاوز أسألك سؤال صغير؛ يا ترى هل الحبوب الي بتزود نسل الأرانب ممكن تزود نسل الإنسان؟

د. فهيم: أيوه يا فندم، بس بدل ما نستخدم هرمون أرنب نستخدم هرمون إنسان.
الوالي: يا سلام! الطب ده علم عظيم خالص. الحقيقة أنا عاوز أسألك كمان سؤال؛
انت يا دكتور راجل علمي ولا حياء في العلم، الجماعة بتاعتي، قصدي يعني السيدة
زوجتي تموت موت في الأطفال، ومش مكفيها الولدين اللي عندنا، ودايمًا تزن على دماغي
عاويزة عيال تاني، عاويزة تاني، وتقعده تقولي: واحد والي عظيم زيك لازم يجيب عشر عيال
على الأقل يورثوه ويحملوا اسمه ومجده. لكن مش عارف يا د. فهيم، انت دكتور وراجل
علمي ولا حياء في العلم، مش عارف، أنا يظهر عجزت (بيبتسم في حياء) أو يمكن من
الإرهاق وكُتِر الشغل، الواحد ما بقاش زي الأول، لكن الغريبة يا د. فهيم، وانت راجل
علمي ومفيش حياء في العلم، الغريبة إن الرغبة زي ما هي، بل بالعكس يمكن زادت عن
الأول، الرغبة عندي كويسة خالص إنما (بيبتسم في حياء) انت فاهمني يا د. فهيم؟
د. فهيم: أيوه فاهم سعادتك.

الوالي: تفتكر يا د. فهيم الدوا ده اللي بيزود النسل يفيد في الحالة بتاعتي؟
د. فهيم: أيوه يا فندم، لازم يفيد، وإن ما كنش يفيد أكلف الدكتور المختص إنه
يبحث عن حاجة أكثر فاعلية.

(الوالي يضحك.)

الوالي: مُتشكر قوي يا د. فهيم، أنا باعتبر الناس اللي عندهم عقل زي عقلك ثروة،
ثروة قومية لازم الحِفاظ عليها.
(الوالي يضحك بانسراح.)

المشهد الرابع

د. فهيم جالس وأمامه الميكروسكوب ينظر فيه، في حجرة الطبيب بالمعمل،
د. شرف الدين والدكتور توفيق واقفان إلى جواره.)

د. فهيم يرفع رأسه بببطءٍ من فوق الميكروسكوب وينظر إليهما وهو يبتسم
ابتسامة الأساتذة الكبار.)

د. فهيم: مين الي قال إن ده ميكروب الزُّرْقا؟

د. شرف الدين: أنا يا فندم.

د. توفيق: وأنا كمان سُفْتَه.

د. فهيم (بلهجة الأساتذة الكبار): انتم نسيتم الطب ولا إيه؟ ميكروب الزُّرْقا طويل زي العصايا مش مُمكن يكون بيبضاوي بالشكل ده، وكمان مالوش ديل، ومش ممكن يكون «أسد فاست» بالشكل ده، ماقدرش أقول إن ده زرقا، ماقدرش أحلف إن ده زرقا؛ انتم عارفين إن في الأمراض الخطرة زي الزُّرْقا الدكتور مننا لازم يتروى وما يصدرش أي حكم إلا وهو متأكد كل التأكد.

د. شرف الدين: والعُمَال الأربعة يا د. فهيم، الأربعة جات لهم نفس أعراض الزُّرْقا، شفائهم ازرققت والكحة.

د. فهيم: هي كل شفايف تزرُق تبقى من الزُّرْقا يا شرف الدين؟! فيه ناس شفايفهم تزرُق من البرد، وانت عارف المصنع بلاط ورطوبة والعُمَال بيهملوا في صحتهم، وطبعًا حالتهم المالية تعبانة، ما يقدروش يشترتوا بلوفرات صوف زي ده (يشير إلى بلوفر توفيق)، وما يقدروش ياكلوا زبدة في الفطور، زائد انهم بيبقوا مُرهقين من الشغل والإرهاق طبعًا بيقلل مُقاومتهم للبرد، وجسمهم ضعيف وخصوصًا إذا كانوا كبار شوية في السن. الزرقا مش لعبة، ده مرض قاتل وخطير وعشان أقول إن في زرقا لازم أكون متأكد. أنا كأستاذ طب لازم أكون متأكد، أنا كأستاذ طب لا يمكن أقول إن ده ميكروب الزُّرْقا مية في المية.

د. توفيق: مفيش حاجة مية في المية يا دكتور فهيم، مفيش حقيقة في الدنيا لا تقبل الشك. ومع ذلك فإن كل الأعراض والتحليل بتقول إنها زرقا.

د. فهيم: مين قال مفيش حاجة مية في المية؟ مين قال إن مفيش حقيقة لا تقبل الشك؟ انت مثلاً، انت توفيق، الدكتور توفيق مية في المية. حد يقدر يقول غير كده؟ أهى دي حقيقة مية في المية. إنما إنك تبُص لي في الميكروسكوب وتشوف حاجة طويلة زي العصايا تقوم تقول عليها زرقا! فيه ستين حاجة طويلة زي العصايا بنشوفها تحت الميكروسكوب، فيه ستين سبب في الطب بيخلي الشفايف تزرُق في الشُّتا، فيه ستين سبب للموت، والأمراض عندنا كتيرة والميكروبات أشكال وألوان، اشمعنى بس الزُّرْقا الي جت في دماغكم؟ إحنا ناقصين أمراض؟ انتم مش مقدرين خطورة المرض ده، مش عارفين زرقا يعني إيه! زرقا يعني المصنع يتقفل. مش فاهم أزاى تقولوا ببساطة كده وبدون أي إحساس بالمسئولية إن دي زرقا؟ (ينظر إلى شرف الدين) وانت كمان يا شرف الدين، تلميذي الي علمته الطب واللي علمته أزاى يفكر كويس قبل ما يصدر أي حكم؟!

د. شرف الدين: كل إنسان بيغلط يا د. فهيم؛ أنا آسف.

د. توفيق: وحنعمل إيه دلوقت يا د. فهيم؟

د. فهيم: حنعمل إيه في إيه؟ كل حاجة تمشي زي الأول، وعاوزكم تطمّنوا العُمّال خالص، ولو حد سأل عن أي حاجة تفهّموهم إن ده كله من برد الشّتَا والشّتَا عمره قصير وقرب يخلص وكل حاجة تبقى عال، وعاوزكم تقعدوا مع العمال وتثقفوهم؛ لازم تبقى عندهم ثقافة عامة، ويهتمّوا بالمسائل العامّة أكثر من اهتمامهم بمسائلهم الشخصية. أنا عمري ما قعدت مع العُمّال في اجتماع إلا وكل طلباتهم مطالب خاصّة. (ينظر في ساعته) ياه، أنا ضيّعت وقتكم. (ينهض) أسيبكم بقى عشان تشوفوا شغلكم وربنا يوفقكم. (يخرج.)

المشهد الخامس

في نفس المكان

(د. شرف الدين ود. توفيق وحدهما ينظران إلى بعضهما البعض في صمت.)

د. شرف الدين: إيه رأيك يا توفيق؟

د. توفيق: رأيي هو رأي د. فهيم.

د. شرف الدين: يعني الميكروب اللي شُفته مش الزّرّقا؟

د. توفيق: د. فهيم بيقول إنه مش زرقا يبقى مش زرقا، ده رأيه. إيه رأيك انت؟

د. شرف الدين: د. فهيم أستاذي وماقدرش غير إني أصدقه، لكن الحقيقة الواحد

اتلخبط؛ أنا شُفته بعيني، زي الزّرّقا تمام، لكن د. فهيم مش مُمكن يغلط في حاجة زي دي.

د. توفيق: طبعا هو مش مُمكن يغلط في حاجة زي دي، لكن مُمكن إنه ما يقولش

الحقيقة.

د. شرف الدين: هو ما قلش الحقيقة؟

د. توفيق: طبعا ما قلش الحقيقة. أنا مُتأكد إنها زرقا، متأكد زي ما أنا متأكد اني

واقف قدامك كده.

- د. شرف الدين: مش معقول! وليه ما قلتش للدكتور فهيم كده؟ ليه سكت؟
- د. توفيق: وانت ليه سكت؟
- د. شرف الدين: أنا لما سمعت كلامه غلّطت نفسي، قلت لازم هو اللي صح وأنا اللي غلط، هو أستاذي ويعرف أكثر منّي في الطب، لكن انت ازّاي تبقى مُتأكد أنك صح وتسكت؟
- د. توفيق: حقول إيه يا شرف الدين؟ أنا فهمت كل حاجة.
- د. شرف الدين: فهمت إيه؟
- د. توفيق: د. فهيم جاي من عند الوالي ودي أوامر عليا لازم نقبلها.
- د. شرف الدين: مش مُمكن يا توفيق، د. فهيم ما يعملش كده، مش ممكن يكذب علينا بالشكل ده، مش ممكن يكون عارف إنها زرقا ويقول إنها مش زرقا.
- د. توفيق: ده شايفها بعينه يا شرف الدين، وده أستاذ كبير ومش ممكن حاجة بسيطة زي دي تفوت عليه، دي باينة زي الشمس.
- د. شرف الدين: د. فهيم مش مُمكن يكذب في حاجة خطيرة زي دي، لو كان واحد غير د. فهيم كنت أنا أصدق، لكن أنا أعرف الدكتور فهيم من ١٥ سنة، كان أستاذي واشتغلت معاه كتير، كان مَثلي الأعلى، كان يشجعني على إني أكون صادق دايماً، مش ممكن د. فهيم يكذب علي.
- د. توفيق: ما تحكمشي عليه كان زمان إيه، احكم عليه دلوقت بعد ما قعد على الكرسي وبقه مسئول كبير؛ الكرسي بغير الناس يا شرف الدين.
- د. شرف الدين: مفيش أي كرسي يقدر يغير د. فهيم. كان دايماً يقوللي الناس نوعين يا شرف الدين؛ ناس الكرسي يغيرها وناس هي اللي تغير الكرسي.
- د. توفيق: كلهم كده، طول ما هُمّ على البر شاطرين في الكلام. ويا سلام الواحد منهم يتهيا له إن آخر قوة. اللي على البر شاطر يا شرف الدين ولما الواحد منهم يقعد على الكرسي ويحس بيه ويملاه ويريح جواه، خلاص بقه واحد تاني.
- د. شرف الدين: مش كلهم يا توفيق؛ فيه ناس بتقاوم.
- د. توفيق: أيوه يمكن تقاوم القوة اللي تقدر تقاومها، لكن القوى اللي أكبر منها ما تقدرشي تقاومها، وده بالطبع منطق راجل علمي زي د. فهيم؛ الدكتور فهيم راجل عنده عقل، مش مجنون، عاوزه يقاوم الوالي؟! وانت عارف الوالي يعني إيه! الوالي يعني الجيش والبوليس والمباحث والفلوس والعلم والفن والحرية والهوا والميه والأكل، أكلنا وأكل ولادنا وكل حاجة في حياتنا؛ مفيش غير المجنون هو اللي يقدر يصارع كل القوة دي، ده كأنه بيصارع الطبيعة تماماً.

(د. شرف الدين يُطرق مُفكرًا لحظة ويهزُّ رأسه بالنفي.)

د. توفيق: برضه لسه ما اقتنعتش يا شرف الدين؟

د. شرف الدين: مش قادر اقتنع يا توفيق، مش قادر أتصور إن د. فهيم عارف إنها الزرقا ويقول مش زرقا، مش ممكن يسيب العمال يعيوا ويموتوا.

د. توفيق: لاحظ إن الزرقا بتمشي ببطء، وكون أربعة أو خمسة يعيوا ويموتوا في الشهر مسألة بسيطة، الناس عندنا على قفا مين يشيل والعدد في اللمون، البني آدم عندنا رخيص يا شرف الدين، رخيص لأنه موجود ومتوفر وزيادة عن اللازم، زي قطع الغيار الموجودة في السوق في أي وقت وبأي تمن، لما تخسر قطعة غيار من دول ترميها وتشتري غيرها؛ لأن تمن الجديدة أرخص من تصليح القديمة، المسألة في كل حنة في العالم بتتسبب بالشكل ده، هو ده الحساب المنطقي في كل الأسواق العالمية، العرض والطلب، المكسب والخسارة.

د. شرف الدين: الدكتور فهيم تفكيره مختلف يا توفيق؛ د. فهيم عمره ما حسب المسائل بالشكل ده، طول عمره يحترم الإنسان وعمره ما استرخسه حتى وهو عيَّان أو غلبان، لسه فاكِر أزاَي كان بيغطِّي العيَّان لما يكشف عليه قَدَّامنا واحنا طلبة، لسه فاكِر أزاَي كان بيخلي ثلاثة بس منَّا يكشفوا على العيَّان عشان ما يتعبش. غيره من الأساتذة كانوا بيعملوا إيه؟ مش فاكِر الأستاذ اللي كان يسيب خمسين طالب يضغطوا بالسماعات على قلب الطفل الصغير لغاية ما تحفر السماعات على صدره حفرة مدورة غويطة وجمرا؟ مش فاكِر الأستاذ اللي ضرب العيَّان الشاب قَلَم على وشه لأنه رفض يقلع هدومه كلها قَدَّام الطلبة والطالبات؟ مش فاكِر الأستاذ اللي كان يعرِّي العيَّانة قصادنا كلنا في عزِّ البرد وخمسين واحد مننا يفحص بصوابه في جسمها؟ الدكتور فهيم ما كانش بيعمل كده، عمره ما عمل كده، ولولا الدكتور فهيم أنا كنت كرهت الكلية وسبت الطب لكن هو اللي خلَّاني أكمل.

د. توفيق: يا سلام على السذاجة والبراءة! لولا إنك كنت زميلي في الكلية ولولا إني عارف مية المية إنك اتخرَّجت معايا من الطب، لا يمكن بتفكيرك ده أقول عليك دكتور. انت دخلت الطب ليه يا ابني؟ اللي زيِّك دول ما ينفعوش في الطب، أحسن لك تروح تكتب روايات أو شعر أو حاجات كده من بتاعة الخيال والعواطف؛ الطب علم، والعلم واحد + اثنين = اتنين، اتنين بالظبط، لا يمكن يكونوا ثلاثة ولا يمكن يكونوا واحد ونص، اتنين بالظبط، ده علم الحساب، الدكتور فهيم راجل علمي وشاطر في الحساب ولولا إنه شاطر في الحساب ما كانش نجح في عالم بيحسب ليل نهار، ما كانش نجح ووصل في وسط

ناس يبجروا ويتنافسوا والأشطر يكسب. وطبعاً مفيش مانع من شوية عواطف كده زي البهارات تتحط من فوق وما تكلفش حاجة، زي إنك تغطي عيان غلبان عشان ما يبردش، أو ما تحطش رجلك على سرير العيان، حاجات كده ظريفة وإنسانية ترضي ضمير الواحد وتخليه يحس بالسعادة، زي ما تدي قرش لشحّات وانت ماشي في السكة، صدقة حلوة تخلي أمثالك من السُّدج يبصوله بإعجاب وحب. إنما عند الجد، لما الكرسي اللي قاعد عليه يهتز، لما رزقه ورزق عياله يبقى مُهدّد بالقطع، المسألة تبقى عاوزه تفكير وعاوزه عقل وعلم وحساب، حساب دقيق جدًّا، واحد + واحد = اتنين، اتنين بالطبط، لا يمكن يكونوا ثلاثة ولا يمكن يكونوا واحد ونص. وفي الحالة دي مفيش حاجة اسمها عواطف، مفيش حاجة اسمها إنسانية، مفيش زرقاء. العواطف هنا اسمها سذاجة، رعونة. والإنسانية هنا طيش، جنون. إنما العقل، يا سلام على عقل الدكتور فهيم فهيمي؛ أحسن واحد يعقل في الحالة دي.

(د. توفيق يضحك بسخرية.)

د. شرف الدين: انت طول عمرك كده يا توفيق، ما تفرّقشي بين الإنسان الكويس والوحش، كل الناس عندك وحشين، كل الناس عندك يضعفوا قصاد الفلوس والدرجات والكراسي. أنا معاك فيه ناس كتيرة كده، لكن الدكتور فهيم غير دول مش مُمكن أنخدع فيه ١٥ سنة، مش ممكن. انت دخلت عيادته؟ لو دخلت عيادته تلاحظ إنه مش معلق يافظة الأسعار زي ما الدكاترة بيعملوا؛ ده بقرش وده بقرشين. عمره ما تاجر بالطب، عمره ما أخذ فلوس من عيَّان غلبان مش قادر يدفع. أظن يعني كل الناس عارفة عنه الحكاية دي.

د. توفيق: ما هي برضه ضمن العواطف اللي تنفع أكثر ما تضر؛ على السُّمعة الحلوة دي عيادته مليانة كل ليلة زي الرُّز والي يقدر يدفع أكثر من اللي ما يقدرشي يدفع. دول ناس بحورهم غويطة يا شرف الدين، ناس يعرفوا يحسبوا كويس، كل حاجة عندهم لها تمن ولازم تجيب تمنها حتى ولو كانت عاطفة كده، عابرة.

شرف الدين: كلامك دايمًا يتعيني يا توفيق، كلامك دايمًا يخنقني، بيخلي كل حاجة في عيني وحشة والدنيا كلها وحشة، أرأي انت قادر تعيش بكل الأفكار السوداء اللي جُوك دي؟

توفيق: انت بتسمي الأفكار الواقعية العلمية أفكار سودة؟ بقول لك يا شرف الدين يا ابني انت أطيب من انك تفهم العلم! ظلموك اللي عملوك دكتور. الناس اللي طبيين زيك يروحوا يشتغلوا بالمسائل الرُّوحانية أو في الفن، ده انت كمان أطيب من انك تكون فنان؛

لأن الفنان لازم يكون شرير عشان يفهم شرور الحياة ويصورها للناس، انت أطيب من انك تكون حاجة خالص، أطيب من إنك تكون إنسان. حقا تكون ملاك بجناحين وتطير فوق فوق وتعيش في السما.

شرف الدين: أنا مانيش ملاك ولا حاجة يا توفيق، أنا عارف كويس إن الدنيا مليانة شرور، لكن بالنسبة للدكتور فهيم بالذات ... انت ما تعرفشي الدكتور فهيم في نظري إيه! أنا كنت باعتبه مثلي الأعلى في الحياة، أنا كنت بلفِّ وأدور في الحياة وبعدين أرجع لأقبيه الإنسان الوحيد اللي يقف جنبي وأنا مهزوم، كان هو الشيء الوحيد اللي بيخليني أحس إن الدنيا فيها خير، وفيها حب وإنسانية. كان هو إيماني الوحيد، كانت بتمر بي ظروف قاسية وخت مقالب كتيرة من ناس كتيرة لكن هو! أفنكر إنه بس موجود كنت باطمئن واستريح. أرجوك يا توفيق ما تهزِّش ثقتي فيه، وخصوصاً في حاجة خطيرة زي دي، لا يمكن الدكتور فهيم يسب العمال تعيا وتموت، لا يُمكن يكذب عليّ ويقول مفيش زرقا. مش يكذب، حيكذب ليه!؟

توفيق: حيكذب ليه؟! أما انت ساذج صحيح! حيكذب لأنه مش قادر يعمل حاجة. حيعمل إيه؟ فكرة إنك تهد المصنع وتبني مصنع جديد مش مسألة سهلة، فين الفلوس اللي حيبني بها؟

شرف الدين: يعني مفيش عشرة مليون جنيه في البلد، يعني ما نقدرش نبني مصنع جديد؟

توفيق: ما نقدرش نبني، وفيه حاجات كتيرة بنقدر نبنيها، فيه بيوت جميلة بنتبني ويسكن فيها ناس محترمين، فيه بيوت زي القصور بنتبني للناس المحترمين الغالين، اللي تمنهم غالي قوي، مش زي قطع الغيار الرخيصة، بني آدمين كل حته فيهم غالية؛ بيوتهم غالية، هدومهم غالية، ضوافرهم غالية، اللون اللي بيدهنوا بيه ضوافرهم غالي، كُحتهم غالية؛ الواحد منهم يكح كحة واحدة بس ويصرف عليها الألافات. فيه فلوس مش مفيش يا شرف الدين، لكن هي فين ومع مين وبتدفع في إيه؟ فيه أولويات للدفع يا شرف الدين، أولويات. مش عارف أولويات يعني إيه؟ باين عليك ما درستش تخطيط.

(شرف الدين شارداً صامتاً.)

توفيق: سرحان في إيه يا شرف الدين؟

شرف الدين: برضه أنا متأكد إن الدكتور غير دول كلهم؛ د. فهيم لا يمكن يسبب الزرقا بين العمّال في المصنع ويسكت، لا يمكن يسبيني أنا (يسكت لحظة) لا يمكن يسبيني أنا كمان أروح المصنع وهو عارف إن فيه زرقا، كان على الأقل ينبهني. صدقني يا توفيق لازم تصدقني، أنا متأكد من د. فهيم، أعرفه أكثر ما اعرف نفسي، أقسم لك بشرفي وحياتي، أقسم لك بكل ذرة من وجودي وكل فكري وكل قلبي إن د. فهيم إنسان مختلف عن اللي انت بتصوره، إنسان مختلف، لا يمكن يسبني أروح المصنع وهو عارف إنه بيعرض حياتي للخطر، كان على الأقل يقولي أو ينبهني عشان أخذ احتياطي.

(توفيق يسكت طويلاً مُفكراً مُتأثراً.)

توفيق (بصوت رقيق): كلامك خلّاني اتلخبط، يمكن صحيح مفيش زرقا يمكن، مش ممكن! فهيم يكذب ويكذب عليك بالذات في حاجة خطيرة زي دي، أنا قرّبت اعتقد فعلاً إنه مش ممكن يكذب، إيمانك القوي بيه عدّاني، الإيمان القوي زي المرض المُعدي، أنا ابتديت أحس إن اللي أنا شُفته بعيني في الميكروسكوب مش الزرقا، أنا حاسس دلوقت براحة، يمكن لأول مرة أحس بالراحة دي، تستعجب يا شرف الدين لو قلت لك إن الراحة اللي أنا باحسها دلوقت عمري ما حستها أبداً، لأ وانت صادق حسيتها مرة واحدة بس لما شفت اسمي في كشف الناجحين في نهائي الطب، حسيت إن عبء كبير بيتشال من على أكتافي وحسيت براحة، لأ برضه ما كانتش زي دي، فاكر إنني اتضايقت ساعتها لأنني ما كنتش من الأوائل وعرفت إن النيابة في القصر العيني راحت مني (يسكت لحظة مُفكراً) لكن أنا متأكد إنني حسيت الإحساس ده مرة قبل كده، امتى وفين مش فاكر بالظبط، أيوه افتكرت (بيتسم لنفسه) كنت في أولى طب وأول ليلة أروح فيها لواحدة ست، حسيت زي ما يكون جسمي ده تقل جسمي كله بينشال من على كتافي، (يسكت لحظة) لأ برضه ما كانتش زي دي، فاكر إنني ساعتها اتضايقت. (يضحك) كانت أول تجربة في حياتي وما كنتش عارف إنني لازم أدفع قبل ما امشي، الحقيقة كنت عارف بس نسيت أو انكسفت أديها فلوس، وتصور هي اللي فكرتني، فكرتني بصوت غريب وحاد لسه في وداني، أحياناً أسمع، لما بيحي العيان يخرج من الباب وينسى يدفع أقوم أفكره وأقول له هات الكشف، لحظتها صوتي يرن في وداني غريب وحاد شبه صوتها. تصور أول مرة أقول الحكاية دي لحد، ويمكن أول مرة أقولها لنفسني، عمري ما فكرت فيها وتصورت إنني نسيتها (توفيق ينظر في ساعته)

يا خبر أنا ضيّعت وقتك يا شرف الدين في كلام فارغ، كان لازم تكون في المصنع (يسكت لحظة مُتذكراً) انت رايح المصنع برضه؟
شرف الدين: أيوه.

(توفيق يتَّجه ناحية الميكروسكوب.)

توفيق: طيب استنى لما ألقى نظرة أخيرة.

(توفيق نظر في الميكروسكوب لحظة، ينهض فجأة.)

توفيق: هو بعينه الزرقا، مش ممكن عيني تخدعني بالشكل ده، مش ممكن تضيع سبع سنين طب وسنتين دبلوم وتلاتة دكتوراه، أنا شايف إنها الزرقا يا شرف الدين. تعالى بص تاني كده.

(شرف الدين يسير إلى الميكروسكوب وينظر بهدوء.)

د. شرف الدين (بصوت هادئ يُشبهه صوت د. فهميم): ميكروب الزرقا يا توفيق زي العصايا، مش ممكن يكون بيضاوي بالشكل ده، وكمان مالوش ديل، ومش ممكن يكون «أسد فاست» بالشكل ده.

(يتجه ناحية الباب) أنا تأخرت ولازم أروح المصنع بسرعة.

المشهد السادس

(في حجرة د. شرف الدين بالمصنع.)

د. شرف الدين والتمورجي شُهدي يُسعفان عاملاً يُحتَضِر راقداً على السرير، العامل يموت، شُهدي يُغْطيه بالملاءة، د. شرف الدين يجلس مُنهاراً من التَّعب على الكرسي، العرق يتصبَّب منه، يبدو عليه الإرهاق الشديد.)

(شُهدي ينظر إليه طويلاً في صمت وتأثُّر.)

شُهَدِي: تعرف يا دكتور شرف الدين انت وانت قاعد كده بتفكرني بمين؟

د. شرف الدين (في إعياء): مين؟

شُهَدِي: الدكتورة نادرة، كانت في شغلها زيك بالظبط، تموت نفسها من الشغل، ليل نهار، كانوا العمال يحبوها حب، ما كناش نحس انها دكتورة؛ تاكل معنا وتسهر معنا، ووشها دايمًا بيتسم، عمرها ما كشرت في وش عيَّان. والله يا دكتور شرف الدين اللي يشوفك يقول أخوها ولا قريبها. حضرتك تعرف الدكتورة نادرة؟

شرف الدين: لأ، ما عرفهاش يا شُهَدِي؛ الدكاترة كتير والدكتورات كتير.

شُهَدِي: لأ، هي مش زي الدكاترة، ولا الدكتورات، هي واحدة تانية خالص يا دكتور شرف الدين، خسارة انك ما تعرفهاش، خسارة يا دكتور شرف الدين لأنها الخالق الناطق شبهك بالظبط، حتى قعدتها على الكرسي ده لما كانت يا عيني تقع من التعب، تمام هي القعدة، يا سلام ربنا ده كبير يخلق من الشبه أربعين!

(يسير شُهَدِي نحو العامل الميت ويحاول أن يحمله.)

المشهد السابع

المسرح مُظلم. ضوء خفيف يظهر عند مدخل المسرح من ناحية اليمين. يظهر في الضوء شُهَدِي حاملاً العامل على كتفيه ويسير به ببطء مُجتازاً خشبة المسرح. موسيقى حزينة، يخرج شُهَدِي بحمله من الناحية اليسرى.

المسرح يظل مُظلمًا خاليًا، ضوء خفيف يظهر، تظهر من ناحية اليمين امرأة ترتدي السَّواد تجري بسرعة المذهولة ومن خلفها أطفال صغار يجرون خلفها، يجتازون المسرح بسرعة ويخرجون من الناحية اليسرى.

المسرح مُظلم وخالٍ تمامًا، صمت.

تُسمَع صرخة امرأة مكتومة: آه يا ضنايا.

صمت وظلام والمسرح خال.

يُسمَع صوت نحيب مكتوم: آه يا ربي.

صمت وظلام.

تُسمَع صرخة طفل صغير يبكي.

صمت وظلام والمسرح خالٍ.

يضاء المسرح في استراحة قصيرة.

الفصل الثاني

٨ مشاهد

المشهد الأول

المسرح مُظلم تماماً وخالٍ.
يسقط ضوء خفيف على مُنتصف خشبة المسرح ويظهر طفل صغير جالس وحده في الظلام، يده ممدودة فارغة.
يبدأ الضوء يغمر المسرح تدريجياً، ويبدأ الناس المارة يملئون خشبة المسرح. الكل يجري بسرعة إلى عمله وحاله، لا أحد يرى الطفل الجالس بيده الممدودة الفارغة. أحد المارة يُلقي في اليد الصغيرة الممدودة الفارغة قرشاً دون أن ينظر إلى الطفل ويُسرع في طريقه. الضوء يخفت تدريجياً على المسرح، والناس تقلُّ تدريجياً حتى يُظلم المسرح تماماً ويخلو من المارة. لا يبقى إلا الطفل الصغير جالساً مكانه ويده ممدودة أمامه في الظلام.

المشهد الثاني

(الضوء القوي في حُجرة نومٍ فاخرة جداً، هي حجرة نوم د. فهيم وزوجته تفيدة.)

د. فهيم بملابس البيت جالس إلى كرسي «فوتيل» يُدخّن بكثرة ويبدو عليه التفكير العميق والضيق. تفيدة جالسة على السرير بشعرها الصناعي وملامحها المصنوعة وحركتها المصنوعة.)

تفيدة: برضه مش قادرة اعرف إيه اللي مضايك في الحكاية دي. الكلام اللي انت قلته ده كله مش شايقة فيه حاجة تضايق أبدًا.

د. فهيم (في ضيق): بقه كل اللي حكيتّه ده ومش قادرة تعرفي إيه اللي مضايقني؟ كل الجهد اللي بذلته ده في الكلام وأنا باحكيلك ما قدرتيش تعرفي إيه اللي مضايقني؟ انت إيه؟ انت إيه؟ ما بتحسيش ولا إيه؟

تفيدة: اسمع يا فهيم، إذا كنت عاوز تقلبها غم زي كل ليلة تقفل الموضوع ده خالص، ستين مرة قولتلك، كفاية طول النهار قاعد في مكتبك تتكلم في الشغل، الساعة الوحيدة اللي نقدر نقعد فيها مع بعض آخر الليل تتكلم برضه في الشغل؟ دي حاجة تكفر، وبرضه مستحيلة ومستزوقة وقاعدة باسمع لك. بقى لك ساعة تتكلم وأنا قاعدة اسمع لما طلّعت روحي، وأنا مالي ومال الأرناب؟ يولدوا ما يولدوش؛ والأرناب الأسترالي إيه! ومش عارفة ميكروبات إيه! ومش عارفة الدكتور شرف الدين إيه! والوالي مبسوط منّي (تقلد د. فهيم بصوتها) والوالي يقولي أنا نوع نادر من البشر ولازم نحافظ عليك، ونخاف عليك. ثلاث اربع كلامك عن إن الوالي مبسوط منك وخايف عليك؛ عاوزني اعرف منين إنك مضايق؟ وعاوزني كمان اعرف إيه اللي مضايك؟ هو أنا باضرب الودع ولا بافتح كوتشينة؟ كنت بتتكلم وانت مبسوط، ما حسنتش في صوتك ريحة الزعل لكن ازاي؟ ازاي ليلة واحدة تمر من غير زعل، لازم تنكد عليّ كل ليلة، لازم تخلق حاجة تزعلّ عشان تتحجج وتدّيني صهرك، اللعبة ما بقتش تنطلي عليّ يا فهيم، ما تقولها كده بصراحة وشجاعة انك بتحبّ واحدة تانية. انت فاكرنى مش عارفة؟ أنا عارفة كل حاجة والناس كلها بتيجي تقولي.

د. فهيم (في دُعر): إيه الكلام اللي انت بتقوليه ده يا تفيدة؟

تفيدة: ده مش كلام، دي حقيقة، الناس كلها عارفها مش أنا بس.

د. فهيم (في قلق): عارفة إيه؟

الفصل الثاني

تفيدة: اعمل نفسك مش عارف حاجة، مثل عليّ دور آخر من يعلم، لكن أنا خلاص استحملت كثير وسمعت كثير، وكل مرة أقول بلاش أقولك، كلام الناس كثير وما يسبوش حد في حاله، خصوصًا لما يكون واحد زيّك ناجح وواصل والوالي راضي عنه، كل الناس بتحقد عليه، وقلت يمكن الستات غيرانين لأنك متجوز واحدة ست راقية من عيلة كبيرة وعوزين يوقّعوا بيني وبينك، قلت لنفسني حاجات واستحملت، لكن أنا خلاص عرفت.

عرفت انك مش ممكن تكون بتحبني زي الأول، طول النهار برة البيت ولما تيجي البيت تبقى مش طابق تقعد معايا قعدة هادية ورايقة، لازم تعكّر الجو بأي حاجة بأي كلمة. وامبارح تقولي شكلي وحش في الباروكة الجديدة؟! طبعًا بقيت وحشة بالنسبة للست الدكتوراة!

د. فهيم: مين دي؟

تفيدة: ذات الشعر الي مالوش وصف، بيقولوا إن شعرها مقصوص زي الرجالة ومشيتها زي الرجالة ورجليها معوجة ومقفعة وبالبلدا!

د. فهيم: تقصدي مين بالكلام ده؟

تفيدة: لكن الحب وحش، الحب أعمى. والغريبة إنهم مش عارفين مين الي بيحب الثاني؛ إنت الي بتحبتها ولا هي الي بتحبك.

د. فهيم: مين هي دي الي انتي تقصديها؟!

تفيدة: الست الدكتوراة الي انت سببتّها شغلها في المصنع وعملتها قال إيه؟ سكرتيرة خاصة، خاصة قوي!

د. فهيم: دكتوراة نادرة؟ تقصدي الدكتوراة نادرة؟!

تفيدة (تُصَفّق في سخرية): برافوا! ازأي عرفت اسمها؟

د. فهيم: اعقلي يا تفيدة خيّي في مخك شوية عقل؛ د. نادرة كانت تلميذتي، ودي إنسانة طيبة وشغالة ومن عيلة مكافحة ولها تقاليد. انت ما تعرفيش العائلات المكافحة دي تقاليدها ازأي، مش زي العائلات الي من الطبقة الراقية بتاعتك؛ البنت في الطبقة دي حياتها كلها تنهدم لو سُمعتها ساءت. نادرة بنت شغالة ومُخلصة في شُغلها عشان كده أنا جبتها معايا في المكتب. بتشيل عنيّ شغل كثير، بتموت نفسها في الشغل. وهي تلميذة في الطب كانت بتشتغل بعد الضهر علشان تدفع مصاريف الكلية، كانت تلميذتي واعرفها كويس واعرف أخلاقها، حرام عليكي يا تفيدة ما تسوئيش سُمعة البنت، أنا عارفك لما تدبني واحدة. فاكرة مدام عليّة الي طفشتيها من البلد كلها عشان اتهيّا لك انها كانت بتبص لي؟

تفيدة: ما هي كانت بتبص لك، وانت كنت بتشجعها. عاوز تنكر؟

د. فهيم: يا تفيدة بلاش نفتح المواضيع دي، احنا متجوزين بقه لنا عشرين سنة وعندنا ولد شاب في كلية الطب، عيب! عيب تفضلي تتكلمي كده زي بنت صغيرة، انتي كبرتي يا تفيدة على الكلام ده!

تفيدة: كبرت؟ كبرت يعني إيه يا فهيم؟ أنا كبرت؟ شوف كلامك اللي زي الطوب! طبعاً كبرت بالنسبة للبننت الكتكوتة اللي عندك في المكتب.

د. فهيم: أووه!

تفيدة (تقلد صوته): حرام عليك يا تفيدة ما تسويش سمعة البننت. مين اللي قال إنها بنت؟ ومين اللي قال إن سُمعتها نضيقة قوي! مش هي دي اللي هربت من أهلها عشان تتجوز عامل في المصنع، ويا ريته كان جواز! بقى يا أستاذ فهيم تبص لواحدة بالشكل ده؟! طب نقي حاجة كويسة تستاهل!

د. فهيم (غاضباً): اقفلي يا تفيدة الموضوع ده أحسن لك!

تفيدة (تهدأ): تقصد إيه؟ مالك زعلت كده؟

د. فهيم (غاضباً): سيبيني لوحدي خالص، مش عاوز اسمع صوت، أنا تعبان وطول النهار باشتغل، ستين حاجة في دماغي، ستين مشكل، بلاوي مثلتلة فوق دماغي (تفيدة تُغادر السرير وتسير نحو الباب ببطء).

فهيرم (يكلم نفسه): وكمان زادت البلوى دي، الميكروب ده اللي جه المصنع؛ مشكلة كبيرة مش عارف لها حل، واضطريت أكذب على كل الناس، حتى على شرف الدين.

تفيدة (بصوت مُنخفض تُكلم نفسها): ما هو أصل الكذب في دمك، إذا كنت بتكذب عليّ أنا مش عاوز تكذب على الناس الغُرب، أنا اللي عشت معاك عشرين سنة، وكل ليلة (تمسح دموعها) وكل ليلة، كنت بتكذب عليّ واحنا مع بعض، واحنا سوا في سرير واحد، اخص عليك يا فهيم، يا خاين يا غدار ياللي مطمرش فيك العيش والملح.

د. فهيم (بصوت هادئ): يا تفيدة اعقلي، خي الليلة تفوت على خير، خلينا عايشين زي ما كنا عايشين. بقول لك أعصابي تعبانة ومش مستحمل عكننة، وبلاش حكاية الكذب دي أرجوكي لأنك عارفة مين اللي كذب على الثاني، أنا ولا أنتي، نسيتي حكاية ... فاكرة أما ... (يسكت لحظة) على العموم أنا نسيت وقلت عشان الولاد نعيش، مفيش داعي نرمط الولاد بيناً، خلينا عايشين يا تفيدة (تمسح دموعها وتخرج).

(فهيرم وحده يُمسك رأسه بيده يكلم نفسه.)

فهيم: يا رب، أنا تعبان، دماغي! مش ناقص تعب.

(يفكر لحظة في صمت.)

لو كان واحد تاني غير شرف الدين كانت بقت المسألة أسهل، إنما شرف الدين! حيقول إيه عليّ لو عرف إني ... لو كان يقدر يفهم كنت شرحت له موقفي، لكن ده لا يمكن يفهم، لا يمكن يتصور إني ممكن أضعف، إني زي أي بني آدم تاني. كان يبص لي على إني إله، وأنا اللي كنت باشجّعه على كده، كان بيرضيني إني أحس إني إله، أنا اللي رسّبت الفكرة دي في نفسه؛ إني واحد تاني غير الناس، ماقدرش، ماقدرش أنزعها منه دلوقت، ماقدرش أنزعها منه بسهولة، بس لو كان واحد تاني غير شرف الدين، كانت المسألة بقت أسهل.

(يمسك رأسه.)

(ظلام.)

المشهد الثالث

د. شرف الدين راقد على السرير بحُجرتَه بالمصنع يلفظ أنفاسه الأخيرة وإلى جواره التمورجي.)

(شُهدي يُحاول أن يُسّعه.)

شُهدي: دكتور شرف الدين، يا نهار اسود! أعمل إيه بس؟ أنا مانيش دكتور، أسّعه ازاى بس؟ (يُقرب كوبًا من الماء من شفّتي شرف الدين. شرف الدين يفتح عينيه.)

شُهدي: د. شرف الدين، أنا شُهدي.

شرف الدين: شُهدي، فين توفيق؟ اندهله.

شُهدي: ندهلته، جاي حالًا في السكة، زمانه يوصل حالًا.

شرف الدين: لوجه توفيق وأنا ما كنتش ... قوله يا شُهدي شرف الدين بيقولك إنها

الزرقا (يدخل توفيق مهرولاً مسرعًا).

توفيق: شرف الدين، مالك؟ هات كورماين يا شُهدي بسرعة.

(يُعطيه حقنة.)

شرف الدين (بصعوبة): د. فهيم كذب عليّ يا توفيق، دلوقت بس عرفته، أَرأي ما عرفتش قبل كده؟ عرفت دلوقت بس، عرفت متأخر قوي، خلاص الفرصة راحت يا توفيق، الأمل راح (يلفظ أنفاسه).

توفيق (في اضطراب): لا يا شرف الدين، الأمل ما راحش، لسه فيه أمل، لسه فيه فرصة، هات كمان حقنة كورماين يا شُهدي.

(شُهدي يجري كالملسوع ويأتي بالحقنة، توفيق يغرزها في ذراع شرف الدين.)

توفيق: شرف الدين اصحى، اصحى يا شرف الدين، لسه فيه فرصة، لسه فيه أمل، يا شُهدي هات كمان حقنة.

(شُهدي يجري ويأتي بحقنة أخرى.)

توفيق: شرف الدين، اسمعني، قاوم الموت يا شرف الدين زي ما كنت بتقاوم كل حاجة. قاوم ما تستسلمش. عمرك ما استسلمت. قاوم يا شرف الدين، فيه فرصة، فيه أمل، مش ممكن تموت، مش ممكن الملاك يا ناس هو اللي يموت.

(توفيق يلقي الحقنة على الأرض فتتكسر ويبيكي.)

(شُهدي يُغطي جسم شرف الدين الميت وهو ينظر إليه في زهول وحزن شديد.)

توفيق: شرف الدين مات يا شُهدي، شيله، شيله على كتافك، الملاك اللي رفض إنه يبات ليلة واحدة خارج المصنع، كان ببسهر عليكم ويشيلكم واحد ورا واحد. شيله يا شُهدي في عينك، شرف الدين كان مؤمن، كان مؤمن بشيء غير موجود وعمره ما فقد إيمانه، حتى كلامي الي زي السم ما أثّرشي فيه، كان عايش في وَهم، الدكتور فهيم ما يكذبش، مفيش زرقا يعني مفيش زرقا، والزرقا عمّالة تنهش في لحم العُمّال، والزرقا عايشة في المصنع، عايشة وعمّالة تكبر وتترعرع، الميكروب عايش ويترعرع والملاك الطاهر مات، ربنا رحمه واستريح، شرف الدين استريح يا شُهدي، وعاش كمان مستريح، كان مصدق إن فيه

الفصل الثاني

خير في الدنيا دي وإن د. فهيم بيقول الحق، وشرف الدين مات واستريح، إنما أنا ... أنا اللي عايش وتعبان، أنا اللي مش مؤمن بحاجة خالص؛ دنيا وحشه وكلهم كدابين، كلهم كدابين، والصادق النهارده بكرة يكذب لما الظروف تتغير، والشجاع النهارده بكرة لما يقف قصاد الأكبر منه يبقى أرنب، أنا مش مؤمن بحاجة يا شهدي، مش مؤمن حتى بنفسي، أنا جبان، أنا عارف إنها الزرقا وساكت، أيوه ساكت ومقدرش أقول. اشمعنى انا دوناً عن الكل اللي اقول؛ عاوز ولادي يا شهدي يعيشوا وياكلوا ويروحوا المدارس. ولادي هم السبب يا شهدي! هم السبب، يمكن لو مكانثي عندي أولاد يمكن كنت أقول، لكن برضه ما اعرفش، أنا باخاف يا شهدي، أنا جبان يا شهدي (يبكي).

(شُهدي يواسيه.)

شُهدي: ما تعملش في نفسك كده يا دكتور توفيق.
توفيق: دي كانت آخر فرصة يا شهدي، كان آخر أمل، خلاص الفرصة راحت، الأمل راح.
شُهدي (في عزم): لأ ما راحش، الأمل ما راحش ولسه فيه فرصة طول ما احنا عايشين، طول ما فينا نفس فيه فرصة وفيه أمل. فيه! فيه!

المشهد الرابع

(شهدي راقد على الأرض في زنانتته. السجان يضربه السوط.)

شُهدي (يصيح): فيه!

السجان (يضربه): مفيش!

شُهدي: فيه!

السجان: مفيش!

(يستريح السجان قليلاً من الضرب، يُجفِّف عرقه يُمسك ذراعه الذي آلمه من رفع السوط والضرب مدّة طويلة.)

السَّجَّان: آه يا دراعي، دراعي انخلع من الضرب وانت لسه ما حسَّتش؟ قول مفيش زرقا.

شُهْدِي: فيه زرقا.

السَّجَّان: قول مفيش.

شُهْدِي: فيه.

(السجان يبداً بضربه مرة أخرى.)

السَّجَّان: مفيش.

شُهْدِي: فيه.

السَّجَّان: مفيش.

شُهْدِي: فيه.

(يستريح السجان قليلاً، يجفف عرقه، يُدلك ذراعه من التعب.)

السَّجَّان (في غضب): انت ايه؟ انت مش بني آدم ولا ايه؟ والله والله العظيم لو كان بغل كان حس.

شُهْدِي (بصوت مُتَعَبٍ جَدًّا): أصل أنا مانيش بغل، أنا شُهْدِي، أنا إنسان، عشت وسط الناس في المصنع، كنت بشيلهم على إيديا دول، كنت بحس جسمهم وهو سُخن زي النار وبعدين يبرد ويتلج زي حته اللحمه، شيلتهم بإيديا دول وشيلت عيالهم، شيلتهم بإيديا وشُفْتهم بعيني؛ كنت اشوف العيّل من دول ينبش في صفيحة الزباله زي الكلب عشان يعترّ في عضمة، على لقمة بايئة ومعفنة، على شوية رز فضلوا من الجيران ورُمُوهم في الزباله. وشفّت الدكتور شرف الدين، كان زي الشُعلة المنورة، يروح ويجي ويكلم كل واحد ويضحك، تمام شبه الدكتور نادرة. يا ترى انت فين يا نادرة؟!

(السجان يضربه بالسوط.)

السَّجَّان: قول مفيش زرقا.

الفصل الثاني

شُهْدِي: فيه.

السجان: مفيش.

شُهْدِي: فيه.

(السجان يستريح ويبصق عليه ويتركه قليلاً.)

السجان: أقسم بشرفي لو بغل كان حس.

شُهْدِي: أبوه، لو كنت بغل ما كنتش حسيتهم بإيديا دول وشفتهم بعينيّ دول. أعمل إيه؟ ذنبي إيه؟ أنا بني آدم، ليّ إيدين بتحس وليّ عينين بتشوف.

(السجان يلسعه بالسوط.)

السجان: بني آدم إيه؟ لو كنت بني آدم كنت حسيت لسعة الكرباج ده!

شُهْدِي: لسعة الكرباج مش بتوجع زي لسعة الألم والجوع، مش بتوجع زي لسعة عين على يتيم بيدورّ على لقمة في التراب!

السجان: دراعي انخلع ودمكّ ساح على الأرض ولسه مش عاوز تسمع الكلام! شايف اللي على الأرض ده؟ ده دمك بص شوفه.

شُهْدِي (يتحسّس جسمه): ده دمي ده، مش عارف إنه دمي، حتى جسمي ما بقتش حاسس بيه، اضرب زي ما انت عاوز؛ خلاص أنا مش حاسس بجسمي.

(السجان يضربه بشدة.)

السجان: قول مفيش زرقا.

شُهْدِي: فيه زرقا.

السجان: مفيش.

شُهْدِي: فيه، فيه، فيه.

(يصرخ وهو يقول بجنون): فيه، فيه!

(ظلام.)

(يُسمع فقط صوت السوط وهو يضرب وصوت شُهْدِي يئنّ بضعف ويقول مُردِّداً بصوتٍ خافت جداً: «فيه، فيه، فيه.» صوته يخفت تدريجياً دون أن ينقطع.)

المشهد الخامس

(شُهدي راقد في حالة سيئة على الأرض في الزنزانة السابقة، يفتح فمه بصعوبة ويقول بصوتٍ خافتٍ ضعيف جدًا.)

شُهدي: فيه، فيه يا دكتورة نادرة.

(دكتورة نادرة واقفة إلى جواره تنظرُ إليه في ألمٍ وذهول.)

شُهدي: فيه يا د. نادرة، بقى لي زمان بدوّر عليكي يا د. نادرة، كتر خيرك اللي تعبتي نفسك وجيتي لغاية هنا، لكن أعمل إيه يا د. نادرة، ما حدش راضي يجيب رباط شاش محدش سائل عنّي، عشان كده سألت عليكي وقلت لهم يدوروا عليكي؛ انت الوحيدة اللي حتقدري ... حتقدري تعرفي ازاي لما الجرح يبقى مفتوح لازم يتربط برباط شاش، انت اللي حتقدري تجيبي رباط شاش أربط دراعي، الجرح مفتوح والدود بياكل فيه وما حدش راضي يجيب لي رباط شاش، خايفين يجيوه أقوم ألفه حوالي رقبتي وأموت نفسي. قولي لهم يا د. نادرة شُهدي مش مُمكن يموت نفسه، شُهدي مش مُمكن ينتجر، لو كان عاوز كان موت نفسه من زمان. انت عارفاني يا د. نادرة عارفاني، عارفة ازاي أنا عاوز اعيش، عاوز اعيش عشان ارجع المصنع، عشان ارجع واقول للعُمال إن فيه زرقا، فيه، فيه، يا د. نادرة فيه.

(د. نادرة واقفة جامدة كالتمثال تنظرُ حولها في ذهولٍ وألمٍ وحُزنٍ وغضب.)

د. نادرة (صوتها يُعبّر عن كل هذه الانفعالات): ازاي؟! ازاي ده حصل؟! ازاي قدر يسكت ولا يقولش؟! ازاي قدر ما يقولش؟ الدكتور فهميم؟! ازاي قدر يسكت؟ ازاي؟!

المشهد السادس

(في مكتب د. فهميم الفاخر.)

(د. نادرة واقفة أمام د. فهميم. فهميم جالس يبدو عليه التعب والانكسار.)

د. نادرة (نفس صوتها السابق): ارّاي؟! ارّاي قدرت تسكت؟! ارّاي ما قلتش؟
د. فهيم (بصوت منكسر): كان شيء فوق طاقتي يا نادرة، ما تتصوريش لما شرف الدين مات أنا حزنت أد إيه.

نادرة: شرف الدين؟! بس شرف الدين الي انت حزنت عليه، بس شرف الدين الي انت بتفكر فيه، لأنه شرف الدين، لأنه التلميذ الي كان بيص لك على إنك فوق فوق، التلميذ الي كانت عينيه تلمع من الفرح لما يشوفك ويبص لك على إنك إله، كنت بتحب شرف الدين لأنه كان بيبعدك، كنت بتحب عبادته ليك، كنت بتحب إيمانه بيك، بتحب «الأنا» بتاعتك فيه، لكن عمرك ما حبيته هو؛ وعشان كده قدرت ترميه للموت لما خفت، لما المسألة بقت أنا ولا هو، اخترت «الأنا» بتاعتك وكنت دايمًا تختار «الأنا» بتاعتك، عمرك ما اخترت حد غير الدكتور فهيم.

د. فهيم: أرجوكي يا نادرة حاولي تقدري موقفي، موقفي كان صعب، صعب جدًا. لو كنتي مكاني يا نادرة كنت حتعملي إيه؟

نادرة: كنت لازم أقول، لازم أقول! وهاقول. ماقدرش ما قولش، ماقدرش! أنا غيرك يا د. فهيم، انت قدرت تسكت، إنما انا ماقدرش.

د. فهيم: يمكن بعد عشر سنين يا نادرة لما تبقي في سنّي يمكن تقدري تفهمي موقفي، فيه حاجات في الدنيا يا نادرة انت لسه ما تعرفيهاش، احتياجات كثيرة بتتولد في حياة الإنسان لما يكبر، أنا سكت عشان الولاد يا نادرة، يمكن لو جرّبتني إنك تكوني أب أو أم يمكن تعرفي. أنا خفت مش على نفسي، لو كانت نفسي كانت المسألة سهلة، لكن الولاد، تصوّري لو كنتي أم وجت قوى كبيرة أقوى منك عاوزه تحرمك من طفلك وتحرم طفلك منك! أم أو أب؛ شعور الأب زي شعور الأم واكثر، وخصوصًا لما يحس بأنه مُهدّد، فيه حاجات في الدنيا يا نادرة لسه حتعرفيها، لما تبقي أم حتقدري تعرفيها وتُعذريني.

د. نادرة: مين قالك إني ما كنتش أم؟ أنا كنت أم من ١٨ سنة، كنت تلميذة في آخر سنة في ثانوي، فتحت عيني لقيت نفسي نايمة على مرتبة قديمة في أوده بلاط، ما كنتش معايا محمود، كان في المصنع، بصيت جنبني لقيت طفل صغير قوي ومد إيده الصغيرة، صوابه كانت صغيرة قوي، لكنها كانت تشبه صوابعي، ومدت إيدي عشان امسكه، بصيت لقيت إيده لفت حوالين صباعي ومسكته قوي قوي، حطيته في صدري وبصيت في وشه، وشه كان أسمر محمر، وعينيه كانت مدوّرة والنني كبير، وييلمع، وييلمع، زي فص الألاماز، كنت عاوزه محمود يرجع بسرعة من المصنع عشان يشوفه، لكن محمود ما رجعتش، وسمعت

من زمايله في المصنع إنه مات بالزرقا، كنت لسه صغيرة، سبعثاشر سنة، وهربانه من كل الناس، وهربانه من أبويا وأمي وكل الناس؛ كانوا عاوزين يمسوني ويحطوني في القفص، لكن أنا هربت، أخذت شنطة هدومي الصغيرة وهربت في نص الليل وهم نايمين، ومشيت لوحدي في الشارع الطويل الضلّمة. كانت الدنيا مطر وبرد والدنيا ضلّمة، في لحظة خُفت، ووقفت، وفكرت ادورّ وارجع، كان الطريق قُدّامي طويل وضلّمة وفي كل ركن شبح واقف يتربص، ووقفت في وسط الطريق وحركت قدمي عشان ادورّ وارجع، قلت لنفسي لحظتها: القفص أرحم، السجن برضه فيه أمان عن الدنيا الضلّمة الواسعة، السجن له أربع حيطان تحميني وتخبيني. لكن ماقدرتش ارجع؛ كان فيه حاجة غريبة بتزقني لُقْدَام، حاجة غريبة لا إرادية زي القدر، أبداً ما كانش القدر، أبداً ما كانش حاجة لا إرادية، ما حدّش ضربني على إيدي وقالي اهربي، كنت ماشية على رجليه بإرادتي، كنت عارفة إنني رايحة للأوده البلاط والمرتبة القديمة والشبّاك المكسور بتبص منه عنين الناس، وأسنة الناس وإيدين الناس حتتهش فيّ زي حتة لحمه، لكن ما قدرتش ارجع، كان فيه حاجة بتزقني لُقْدَام؛ حاجة أقوى من الإرادة، حاجة أقوى من الحب والجنس. في الليلة دي بالذات ما نمناش سوا، في الليلة دي بالذات ماكنتش عاوزة محمود، كنت عاوزة اهرب من القفص، قفص المجتمع المزيّف، التقاليد المزيّفة، والشرف المزيّف، والحب المزيّف، والكلام المزيّف، والوجوه المزيّفة، والزواق الكذب. كنت عاوزة اهرب واحرّر نفسي، كانت أصعب لحظة في حياتي، دُست عليها بقدمي ومشيت عليها ومشيت. كان مُمكن في كل خطوة اقف وادورّ وارجع؛ أرجع لأبويا وأمي ولبيتنا الدافي واتجوّز ابن عمي زكريا تاجر الموبليات الغني وأجيب جهاز وعيال وأعيش زي الناس ما هُما عايشين، لكن مارجعتش، كنت شايفة الطريق قُدّامي ضلّمة وطويل وصعب لكن مارجعتش، دست على قدمي ومشيت، دست على أصعب لحظة ومشيت. فيه ناس ما تقدروش تدوس على اللحظة دي وتمشي، تفضل واقفة عندها، ماسكة فيها وخايفة، متبّنة فيها وخايفة، يفضّلوا أسرى اللحظة دي، اللحظة هي اللي تمسكهم وتأسرهم وتدوس عليهم ويفضلوا واقفين، الدنيا من حوالهم تمشي والزمن يمشي وهم واقفين في مكانهم عند اللحظة دي، دايساهم، حبساهم زي الفيران في القفص. دي اللحظة اللي حرّرتني، لا أبداً، ما كنش برضه هي دي، دي كانت تيجي نقطة ثانية، لحظة بس، أول خطوة على الطريق، كانت نقطة البداية وبعد كده تيجي نقطة ثانية، لحظة ثانية وتالته، خطوة ورا خطوة نقطة فوق نقطة، لغاية ما الدورق يتّملي، طريق طويل، وكل لحظة فيه صعبة وطويلة زي الدهر، تخلي جدر الشعر تقف والشعر يشيب والعمر يتملي ويكبر وإن

الفصل الثاني

ما فاتش فيه كثير، عدد اللحظات دي هي اللي بتعمل العمر مش عدد السنين. لحظة ورا لحظة بالتدريج، لحظة ورا لحظة بالتدريج زي المية على النار تسخن شوية شوية وبعدين تيجي لحظة تغلي وما تقاش فيه؛ تبقى بخار، كذلك الإنسان لحظة تتراكم على لحظة على لحظة تراكم كمي بالتدريج، وبعدين تيجي لحظة يتغير النوع، يفتح الواحد عينه يحس إنه بقى واحد تاني، إنسان جديد، غير الأولاني، يفتح دراعاته ويحس إنه يقدر يحضن هوا والسما والدنيا والناس، يحس إنه يقدر يحضن كل الناس، يفتح دراعاته عن آخرها ويحس إنه مالك الدنيا، مالك كل لحظة في عمره، مالك كل حته في نفسه، مالك نفسه ومالك جسمه ومالك عضلات وشه، يقدر يفتح بقة ويضحك ويقهقه بصوت عالي، يقدر يفتح بقة ويقول اللي هو عاوزه. صوت يخرج لوحده طبيعي بدون مجهود ويقول: فيه زرقا، أيوه فيه زرقا. شوف أنا بقولها سهلة ازاي؟ سهلة علي، طبيعية زي الهوا ما بيدخل جوه الصدر ويطلع. ازاي كانت صعبة عليك؟! ازاي ما قدرتش تقولها؟ ازاي؟!
د. فهيم: ما قدرتش أقولها يا نادرة؛ كانت صعبة علي، أصعب حاجة قابلتها في حياتي، أصعب حاجة.

نادرة: لأنك ما عشتش لحظة أصعب منها، لأنك ما مشتش في الطريق الصعب. مش كل واحد يقدر يمشي فيه، فيه ناس بتأخذ الطريق السهل القصير، بتبقى مستعجلة تزق غيرها وتبقى عاوزه توصل، عاوزه تنجح، عاوزه، عاوزه، عاوزه ... العوزان النهم، أنا عاوز أنا أريد، أنا أريد ... الإرادة الجشعة السريعة. المسألة مش إرادة بس، المسألة مش أنا أريد، المسألة مش أنا عاوز، فيه ناس بتعوز تاكل وغيرها يجوع، فيه ناس إرادتها حديد؛ تقتل عشان تملأ بطنها وغيرها يجوع. المسألة أكبر من الإرادة واللاإرادة، وأصعب من الإرادة أو اللاإرادة. المسألة ازاي الإنسان يمشي في الطريق الصعب لحظة ورا لحظة ورا لحظة ويحرر نفسه، يحزر نفسه من جوه ذاته ويخليها تخرج بره جسمه وتحس غيره، يحررها من «الأنا» ويحس غيره زي ما تحس جسمه! ويبقى في الوقت ده يعوز غيره ياكل زي ما بياكل، يبقى ممكن يقتل عشان غيره ياكل زي ما هو بياكل. من أربع سنين بس مریت باللحظة دي؛ كان عندي نوبتشية حوادث في المصنع وخرجت راجعة بيتي قبل الفجر بشوية صغيرين، كانت الدنيا شتا ومطر ومالقتش حاجة اركبها فمشيت. وأنا بعدني كوبري عباس شفت حاجة صغيرة ملفوفة ومحطوطة على الرصيف، وقفت وبصيت شفت إيد صغيرة وصوابعها صغيرة، مديت إيدي بصيت لقيت الصوابع الصغيرة بتلف حوالين صباعي وتمسكه قوي قوي، حطيته في صدري وبصيت في وشه، وشه كان أسمر ومحمر

وعينه كانت مدوّرة والنّبي كبير وبيلمع، بيلمع زي فصّ الأماز. حسيت إنه ابني، أنا اللي ولدته اتولد من صليبي أنا، ولدته فين أو إمتى معرفشي! لكن أنا اللي ولدته، عمرك ما جالك الإحساس ده؟ عمرك ما وقفت العربية بتاعتك على كوبري عباس وبصيت؟ لو كنت وقفت مرّة لو كنت بصيت مرة يمكن كنت عرفت، يمكن كنت عرفت إن كل الأطفال بيتولدوا شكل بعض، كل الناس بيتولدوا زي بعض، لكن بعد كده بيختلفوا؛ ينقسموا نوعين: نوع بيدور على الطريق الصعب ويمشي فيه ويعرف الألم ونوع يدور على الطريق السهل ويهرب من الألم وما يعرفوش. الألم ده هو الإنسان، نفس الإنسان، القوة، الروح، الإله اللي جوه الإنسان، هو الفرق بين إنسان وإنسان، فرق رفيع وشفاف، أحياناً ما ينشافش ويفوت علينا، يفوت زي الشعرة في العجين بتفوت.

د. فهميم (بصوت متأثر): أنا فعلاً يا نادرة عمري ما عرفت الألم، كنت باجي لغاية عنده واهرب. حياتي كلها كانت سهلة، أبويا علمني وصرف علياً في كلية الطب، كنت ارجع الأقي عشاى جاهز وسريري جاهز وأودتي نضيقة، كان عندي كل حاجة، عمري ما عرفت يعني إيه واحد يجوع، وبقيت دكتور وأستاذ طب. ما عرفش كل حاجة كانت سهلة ازّاي؛ عشان كده كان متهيأ لي إن كل حاجة سهلة والدنيا مافيهاش ألم. حتى لما كنت بسأل العيَّان وأقولُه فين الألم يا أبويا؟ ويشاور على صدره أو بطنه، أحط إيدي على جسمه وما احسش بالألم. وأنا صغير لما كانوا يغرزوا في دراعي حقنة التطعيم كنت اصْرُخ من الألم، وفضلت طول عمري اكره أخذ الحُقن. أصعب ألم سُفّته في جسمي هو إبرة التطعيم، لكن لما كنت أعرز الحقنة في دراع العيَّان ويشد إيدَه أستغرب ليه ببشدها، وأقول له ما تشدّش إيدك وخليك شجاع وخليك راجل، مع إني كنت عارف بعقلي كطبيب ازّاي الجسم يتألم، لكن ما كنتش عارف بإحساسي يعني إيه ألم، العقل سهل يعرف ويتملي معلومات عن أكبر المعضلات اللي في الدنيا والعلوم، سهل إن العقل يتعلم، لكن الإحساس! أصعب حاجة إن الإحساس يتعلم. ذنبي إيه يا نادرة؟ ذنبي إنه ظروفّي كانت سهلة وكويسة؟ ذنبي إيه؟

نادرة: كنت لازم تقلق وتدور، كنت لازم تقلق وتحس بنقص، اللي عمره ما اتألم ويكون إنسان لازم يحس إنه صغير ووحيد وقلقان، لازم يحس إن حياته ناقصة وحاجة في حياته ناقصاه، حاجة في حياته ضايعة ومش لاقبها، حاجة مُهمة خالص مش لاقبها، ما يحسّش طعم الأكل ولا الشرب ولا النوم ولا الجنس وكل حاجة تبقى من غير طعم زي المية الفاترة. فيه ناس تعيش وتسكت وترضى بالعيشة الناقصة وتقول أدي احنا

عايشين، وفيه ناس تقلق وتدور على الحاجة الضايعة، وتفضل تلف وتدور وتدور زي الأسد المحبوس جوه القفص، يفضل يدور ويدور ويدور، يفضل حاسس إنه وحيد، وإن حوالية سور بيعزله عن غيره، سور تخين وهو جوّاه وحيد محبوس مخنوق. يفضّل يدور ويموت وهو بيدور عن إنه يقعد جوّه القفص. فيه ناس تموت وهي تدور عن إنها تفضل وحيدة محبوسة لوحدها جوّه «الأنا» لكن إذا ما ماتت، إذا قدرت تكسر الباب وتخرج برّة «الأنا» حتلاقي أعلى حاجة في الدنيا؛ حتلاقي نفسها.

د. فهميم (يقترّب من نادرة في حب): دلوقت بس فهمتك، دلوقت بس عرفت ليه أنا كنت بحبك، ليه دُونًا عن كل طالبات الكلية، دُونًا عن كل البنات والسيدات كنت بحبك. لما كنت ابص في عينيكى كنت باخاف، ما كنتش بعرف أنا باخاف ليه، ولما تمشي من قُدّامي اضحك لنفسى واقول عبيط، ما هي واحدة زي كل الباقيين. لكن لما أشوفك من بعيد ابقى عاوزك تقربى منى عشان اشوف عينيكى وابص فيها واعرف أنا باخاف من إيه، كنت عاوز أعرف أنا باخاف من إيه، كنت أستاذك وانت تلميذة، تلميذة مبهدة؛ شعرها منكوش وفستانها قديم وجزمتها كعبها متآكل ومعوج، ولما تمشي من قدامى أضحك لنفسى وأقول عبيط، لكن لما ألمحك من بعيد أبقى نفسى تقربى عشان اشوف عينيكى وابص فيها واعرف ليه أنا باخاف. دلوقت بس عرفت إنى كنت بخاف من نفسك، نفسك دي اللي لقيتها بعد ما مشيتي مشوار طويل وقطعتي الطريق، نفسك دي اللي لقيتها وماسكاها بإيديكى واسنانك ومتبّنة فيها ومش ممكن تخسريها، نفسك دي اللي كنت باشوفها جوّه عينيكى من جوّه ومقدرش امسكها، أمسك إيدك وماقدرش أمسكها، أمسك جسمك كله بين إيديا ومقدرش أمسكها. فاكرة الليلة الوحيدة اللي مضناها سوا، ما تتصوريش يا نادرة أنا الليلة دي حسيت بإيه، حسيت إنك بتدبيني كل حاجة، كل حاجة في جسمك إلا نفسك، حسيت ليلتها إنك غالية قوي، نفسك غالية قوي، مش ممكن أقدر آخدها، ما حدّش يقدر يأخدها، بأي تمن، أعلى من أي تمن، أعلى من إنها تتشري أو تتباع بالعملة المتداولة في عالنا، العملة اللي بتحسب واحد + واحد = اتتين. وخُفت يا نادرة، لقيت الطريق لك صعب وغالي، واستسهلت واسترخصت؛ اشترت تفيدة بكل فلسي وخُفت اتجوزك، عاوز مراتي تكون أنيقة ومن عيلة وراقية وأبوها مركزه كبير مش عامل في المصنع. سامحيني أنا عرفت دلوقت بس، أنا فهمت دلوقت بس، أنا اتعلّمت دلوقت بس. صحيح اتأخّرت في التعليم، بعد ما كبرت وشبت وبقيت أستاذ كبير، اتعلّمت دلوقت بس وتلميذتي هي اللي علمتني. (يركع عندها) سامحيني يا نادرة لأن أنا اللي خسرت مش انت، أنا خسرت نفسى، وعشرين سنة من عمري (بيكى).

المشهد السابع

(نفس المنظر السابق.)

(د. فهيم جالس، يقف أمامه د. توفيق.)

د. فهيم: بتقول إيه يا توفيق؟

د. توفيق: التمورجي شُهدي يا فندم مستمر في إضرابه عن الأكل، مش عارف طالعة في دماغه حكاية الزرقا دي، مش راضي يبطلّ ليل نهار يقول فيه زرقا، لا نافع فيه تخويف ولا نافع فيه ضرب؛ باين عليه مسكين فقد عقله.

د. فهيم (بصوت هادئ جدًّا): لا يا توفيق، شُهدي ما فقدش عقله، احنا اللي فقدنا إحساسنا، شُهدي كنا بنشوفه تمورجي صغِير وهو في الحقيقة كان الإنسان، النفس، الروح، القوة، الإله، اللي جوّه الإنسان. وأنا، أنا الأستاذ الدكتور فهيم كانوا بيشوفوني، إله مع إني في الحقيقة كنت صغير، كنت أسير، كنت عبد من العبيد. شُهدي هو الحقيقة، شُهدي بيقول الحقيقة، أيوه فيه زرقا، فيه زرقا يا توفيق (توفيق ينظر إليه مذهولًا).

توفيق (بصوت زاهل): د. فهيم اللي بيقول فيه زرقا؟ أنا مش مصدّق وداني!

د. فهيم: لا صدّق ودانك يا توفيق، أخيرًا الأستاذ الدكتور فهيم فهم واتعلم. التعليم اللي احنا بنتعلمه في المدارس والكلّيات والوظائف ده مش تعليم، دي كلها مُجرّد معلومات بنحشي بيها مخنا زي الكوسة لما تنحشي بالرز، أو الكيس الدُمور لما ينحشي بالقطن، مُجرّد حشو، ويفضل إحساسنا زي ما هو، إحساس جاهل غير متعلم، إحساس ما عندوش إحساس، ما بيحسش، ما بيحسش حاجة إلا جسمه، جسمه هو وبس، ما يحسش إلا الإبرة اللي بتغرّز في جسمه، إنما الإبرة اللي تدخل في جسم غيره! السكاكين اللي تتقطع بيها أجسام الناس الثانية هو ما يحسش بيها، طالما هي بعيدة عن جسمه.

(د. توفيق يُمسك رأسه ويبيكي بصوتٍ مكتوم.)

د. فهيم: الكلام ده يا توفيق لازم يخليك تبسّم وتضحك مش تبكي.

الفصل الثاني

توفيق: أنا بابكي لأنني أنا اللي عايش وباسم الكلام ده، كان نفسي شرف الدين هو اللي كان عايش وهو اللي يسمعه، هو اللي بيسمعه من أستاذه الدكتور فهيم، أستاذه اللي صدّقه وآمن بيه، آمن بيه لغاية آخر نفس، لغاية آخر لحظة من عمره.

د. فهيم: شرف الدين فهمني قبل ما أفهم أنا نفسي، شرف الدين حس بيّ قبل ما أحس أنا بنفسي، شرف الدين سبقني. فيه ناس بتسبق يا توفيق، دايمًا فيه ناس بتسبق واحنا بنتعلم من اللي سبقونا، واللي جاين ورانا يتعلموا منا، هي دي الحياة يا توفيق، واحد ورا الثاني، واحد ورا الثاني، والإنسان هو اللي يسبق.

المشهد الأخير

(المسرح مُضاء جيّدًا وخالٍ.)

(تدخّل من ناحية اليمين نادرة ومن خلفها يسير شهدي ثم شرف الدين ثم فهيم ثم توفيق ثم تفيده ثم السجان ثم الوالي. يجتازون خشبته بهذا الترتيب؛ نادرة في المُقدّمة والوالي في المؤخّرة، حين تصل تفيده إلى مُنتصف المسرح يتقدّم السجان خطوةً ويُمسك ذراعها ويسيران معًا. حين يصل الوالي إلى مُنتصف خشبة المسرح يقف ويستدير مُواجهًا الجمهور.)

الوالي: بقى أنا اللي دايمًا كنت امشي قدامهم آجي على آخر الزمن امشي وراهم؟! أما مؤلّف جاهل صحيح، مؤلّف غبي غير عملي، ما يفهمش الأصول، ما يعرفش البرتوكول، المؤلّف ده لازم يترفد، هاتوا لي المؤلّف، هاتوه وارفدوه.

(النهاية)